محمد سُرور

رواية

أرض الكراميل

رواية

أرض الحرامية

مُحَمَّد سُرُور

إهداء

إلى أبي العظيم،

لا أحد مثلك، ولا مثلك أحد.

مذكرات كاتب مجنون قفز
من رواية كاتب آخر

مذكرات الكاتب المجنون

١

لا أتخيّل كيف سيكون وجه ذلك المجنون «سالم الدندراوي» عندما... هاهاها.. يفتح أدراج مكتبه في الصباح، ويخرج مخطوطة روايته، ليجدني قد قفزت منها.. هاها. أتخيله يجري كالفأر مذعورًا يبحث عني مرددًا: «أين كاتبي؟ أين كاتبي المجنون؟ أين ذهب؟» هاهاها. يستحق ذلك، ذلك المخبول «سالم» جعلني أكتب رواية مخبولة مثله، دموية ومقززة مثله أيضًا. رواية تدور حول كاتب مجنون (المقصود به أنا طبعًا) صوته أجش، ويبصق بعد كل صفحة يكتبها، يكتب رواية عن شجرةٍ تطرح غِربانًا لسبب غير معروف، وأطفالًا دون رؤوس، وحفلات جنس جماعية يُذبح كل من فيها مع طلوع الشمس. ولذلك هربت من ذلك المجنون، أثق أنه كان سيجعلني أنتحر في النهاية، أخرم رأسي بطلقة، أو أشق صدري بسكين. فلتُّ بجلدي.. هاهاها.

سأكتب روايتي الخاصة، ولكن عمّ أكتب؟ امم، رأسي متخم بالأفكار الحلوة، وليست كتلك الدموية يا «سالم» يا مخبول. أحب القطط، ربما أكتب عنها. آه، رواية عن قطٍّ يلعب مع العالم. قط يرى العالم كرة ويلعب معه. آه، أو قط يعري العالم. آه حلوة. أعرف، سيخرج قارئ متحذلق ويسأل: كيف يمكن لقط أن يعري العالم؟

سأجيبه وقتها: هكذا يا شاطر؛ يمسك القط العالم بيده اليسرى، وينتف ريشه بيده اليمنى، حتى يعريه، هكذا يا فذلوك.

آه، أو ربما أكتب عن فكرة الرجل الذي استيقظ ليجد نفسه جالسًا أمام التليفزيون وقد تحوّل لكرسي خشبي، آه، تحول لكتلة من اللحم الخشبي، آه أفكار حلوة وطعمة كلها.

لكني وعدت صديقي «نزار» أن أجعله بطل روايتي القادمة، وأنا لا أخلف وعدي. تخيّلْ يا «نزار»، ذلك المخبول «سالم» جعلني أقتلك في نهاية الفصل الأول، تخيل! يقول لي: هذا أفضل، حتى نصدم القارئ. مخبول، هاها. ولذلك هربت أيضًا، لم أحب أن أراك مسجًّى في دمائك هكذا،

ولكن سأقحمك في أيٍّ من أفكاري الحلوة.
آه، ربما أقحمك في فكرة «مورفيس» والعالم البديل الحالم، آه، فكرة حلوة وتناسبك، حسنًا يا «نزار»، في البداية ستكون بائسًا، آه، هاها، لا تقلق، ذلك لفترة مؤقتة. لا تهون عليّ، سأحوّل حياتك لـ«كراميل» في النهاية، آه «كراميل»، سأسميها «أرض الكراميل»، تلك الأرض التي تذهب إليها ستكون حلوة مثل «الكراميل». ولكن سأستعير من تاريخك النسائي الأسود، هاها، زوجتك ستهجرك بعدما تكتشف خيانتك، حياتك ستقف وتظلم قليلًا، ستغيب السعادة عنك، آه، حتى يدلّك صديقُك على الحل. آه، أنا متحمس من الآن، ستكون رواية حلوة، ستدور أحداثها في الإسكندرية الحالمة. ولكن لن تنفع تلك اللغة التي أكتب بها، آه ذلك المخبول «سالم» علّمني حكمة: لكل رواية لغتها الخاصة. مخبولٌ، لكن معه حق، اللغة الناعمة للرواية الحالمة، هاها، يبدو كإعلان لمنتج رخيص، حسنًا، لنجرّب..

الروايـة

في زاويـةٍ مُهملة بعقولنا، يقبع الخلاصُ
وحيدًا مُقيدًا.

المُؤلف

الحلم
هو
الخلاص

نزار
يناير، ٢٠١٥
صباح ليلة مُمطرة

كنتُ وحدي في البيت، حين راودني ذلك الكابوسُ لأول مرة. نهضتُ مذعورًا وبنصف وعي. كان لا يزال صوتُ الضحكات الغنجة يتردد في رأسي. مشيتُ بين الغرف مُتتبعًا الصوت. كلما دنوتُ من غرفة ازداد طنينُه حتى كاد يخرم رأسي، وكلما فتحت أي باب يتبخر، ثم يعودُ بالدنو من أي غرفةٍ أخرى. رويدًا، بدأ الوعي يطفو والضحكات تخفت، وحين أدركتُ أن ذلك مجرد كابوس، كانت الضحكات قد اختفت. ولكنه- للأسف- اختفاءٌ مؤقتٌ، لم يدم، لأن ذلك الكابوس ظل يتردد كثيرًا في الصباحات اللاحقة.

هي..

كل صباح، يحضرني طيفُها، قبل الذهاب إلى عملي، تحديدًا مع أول رشفةٍ من قهوتي، وأول سيجارة. يجلس قبالي أثناء تناول الفطور، تمتد خيوط صامتة بيننا، تقطعها بعضُ النظرات العتابية، تنظر تجاه غرفةِ النوم، تُذكرني بفعلتي. عبر تلك النظرات، أفض رسالتها، تُحملني ذنب الفراق.
تتراءى أمامي ذكرى، شطرت حياتي نصفين، أحاول طوي تلك

الذكرى، لا أقدر.
ذِكرى ذلك اليوم، حينما عادت سلمى مبكرًا من سفرها لتجدني عاريًا بغرفة نومنا، أغرق بشبقٍ محمومٍ مع تلك العميلة الحسناء من البنك، دخلت الغرفة قبل النهاية، قبل مرحلة الاستلقاء على الظهر للراحة. الصدمة ألجمت كلينا. وحدها الحسناء العارية كانت حاضرة الذهن في تلك اللحظة، لملمت ثيابها في سرعةٍ وهرولتْ بعيدًا، مُطَّرحة خلفها وجهًا مصدومًا، ودموع ألم، وقضيبًا مُنتصبًا. تلك النظرة بعينيْ سلمى لم تُفارقني.
مع قهوتي الصباحية، كل يوم، أتذكرها. هل أحببتُها فعلًا؟ أم مجرد أُلفة؟ لا أدري. لم أفك رموز مشاعري تجاهها يومًا، دائمًا كنتُ أقفُ على أرضٍ خارج كل التعريفات، يجذبني أحدها إليه فأجدني أركض نحو الآخر، وبين كل تلك الأوهام أغرق.
في هدوءٍ رحلنا. ومنذ ذلك الوقت، حياتي لم تعد كما كانت. أصبحتْ خاويةً بلا معنى، ليس لأني أفتقد سلمى، ولكن لأني عُدتُ وحيدًا، وتائهًا. أُفتش عني بين الوجوه. أحاول إنجاز عملي لتحقيق نجاح وهمي يسدُّ ثُقب التيه بقلبي.
أحيانًا، يُعاودني ذلك الكابوس بخصوص سلمى. ذلك الكابوس- الذى طالما داهمني كثيرًا وأنا معها- أكرهه، وعصي عليَّ تفسيرُه، ولكنه زاد- بسهولةٍ- الفجوة بيننا.
كنتُ دائمًا أراني نائمًا- في الكابوس- في الغرفة الأخرى مقابل غرفة النوم. أسمع تأوهات سلمى من غرفة النوم وهي تُنادي

بشبقٍ اسم صديقي بالعمل، ثم يتهادى إلى مسامعي خريرُ ماء الدش بالحمَّام، كل ذلك وأنا مُقيد، لا أستطيع الحركة، ثم صوت قُبلات وضحكات غنجة، فأنهض، في تلك اللحظة فقط تُطاوعني عضلاتي وأقوم. أسير حتى غرفة النوم، لأرى المشهد الذي رسمه عقلي منذ قليلٍ متجسدًا امامي، أجد سلمى بين أحضان صديقي، كثعبان يُنازع الموت، يتلوى جسدها من الشهوة، حينها فقط أصحو.

أصحو وأنا أشعرُ بخنق، لأنني لستُ كالنساء، يفورُ الدم من بين ساقي أحيانًا ليبين لي فساد الحلم، فأتلهف صوت أذان الفجر للتنبؤ برؤياي، فلا الدم يظهر ولا الأذان يُرفع، فتنهش مخالبُ الشك عقلي بقوةٍ، ويعتصر ألمُ الخيانة الوهمية قلبي.

***

ريم

لا معنى لما يحدثُ لي، أو تفسير. مناماتي أصبحتْ غريبة، ويقظتي أغرب. أصبحتُ أخاف النوم وأرغب فيه. أنام كثيرًا كالرُّضَّع، أو ربما أكثر، لم تفلح خيوط الشمس المُتسللة كل صباح من نافذة غرفتي أن تُحيلني لليقظة، حتى تلك الرَّنات المُزعجة، المُنبثقة من المنبه، أسمعها الآن وكأنها معزوفاتٌ جميلةٌ في أحلامي. أصواتٌ كثيرة مألوفة، تستحيل في المنام لهيئةٍ أخرى. أبواق سيارات الشارع مثلًا، ترن في أذني كزقزقات

عصافير صغيرة. أقف على أبواب مناماتي تائهةً، أتلمَّس أي حقيقة أتمسك بها، أي شيء ألوذُ إليه ليُنجيني.

أصحو وصورة ذلك الشبح- الوسيم- تُطاردني، لا أذكر أنني رأيته من قبل، أستلقِي مُحدقةً للفراغ، متى رأيت هذا الوجه؟ تتراص الوجوه أمامي، أتفحصها بشغفٍ، أبحثُ عن الشبح المجهول بينها، فترتد خيبتي إليَّ.

ذاكرتي هشَّة، مثلي. أنسى المواعيد، أشخاص حديثو المعرفة، وأي أرقام تمثلني. فكيف يتراص أمامي كل ذلك العدد؟ وكيف الشبح الوسيم ليس بينهم؟ حتى كلام طبيبي النفسي عن الوجوه والعقل الباطن لم يُقنعني، فهو لم ير ما رأيت. أكاد أجن، يظن طبيبي أنني كذلك بالفعل، بالطبع لم يقلها لي، ولكني رأيتُ نظرته عندما قصصتُ له ما يحدث لي، تلك النظرة التي تقول إنه وقع على مريضةٍ نفسيةٍ جديدةٍ.

كرهتُ نظرته لي كمريضةٍ حقيقيةٍ، لكني أحببتُ اهتمامه الفائق بي، وشعرتُ براحةٍ نفسيةٍ بمجرد الحديث معه. تمكَّن من حيازة ثقتي، بعد جلستين فقط.

في المرة الأولى كان الحوار متحفزًا من جانبي، طلب ألا أدخل مباشرةً بالموضوع وأن أقص له عن حياتي؛ قصصتُ عليه حياتي الخالية، وعن ماضٍ مُعتمٍ، عن تدخل القدر المُتعنت كثيرًا، ليزيل باستمرار ودون داعٍ أي ألوان عن اللوحة التي أحاول رسمها منذ الصغر.

كنتُ قد جاوزت السادسة ببضعة أشهر حينما رسمتُ أول رسمة. أبي وأمي في منتصف الرسمة، يفرق بينهما جسدي الصغير، يمسك كل منهما بيدي، وفي أعلى الصورة على اليسار كان نصف قرص الشمس الباهت. كنت أنتظرهما بشغفٍ لأريهما أولى رسوماتي، لكن هذا لم يحدث أبدًا. في نفس اليوم، جاءني الخبر وأنا عند جدتي، إنني غالبًا لن أرى أيًّا منهما مرةً أخرى، لأنه- كما عرفتُ لاحقًا- انقلبت السيارة بهما في الطريق، قرب البحر، بسبب السرعة.
اعتادت أجفاني الدمع، وأصبحتْ وحدتي ونيسي، حتى بعد أن رحلت العجوز وانتقلوا بي كالإرث إلى بيت خالتي، لم تستطع ابنتها- التي هي في مثل عمري تقريبًا- فك شفرات عزلتي، تصاحبنا على استحياء، فتولدت علاقة هشة مهمشة.
احلوَّت الأيام قليلًا مع سليم، أيقظ الحب روحي، جميل هو حينما يكون صادقًا، أو حين تظنه كذلك. أحببتُ في سليم احتواءه لي، كنتُ أستكين بين يديه كالفراشة. كان بالنسبة لي كالقشة التي تعلقت بها، لم يتوار القدر عن الصورة أو ينزوي. عاد للوحتي بقوة مصاحبًا معه مشهد خيانة سليم لي، أتى بالمشهد في منتصف رسمي للوحتى، كنت قد بدأت رسم الخطوط الأساسية بالرصاص، ولم أضع لها لونًا بعد، وفي أعلى اللوحة، على أقصى اليمين، كتبت بخط صغير، بالرصاص أيضًا "الحب يمحو الحزن". لصق المشهد في منتصف اللوحة ورحل،

وتركني أقطع اللوحة وحدي. قطعتها إلى نصفين أولًا، فشطرت مع اللوحة مشهد سليم مع الفتاة، فانفصل جسداهما عن بعض مُجبرَيْن، ثم جعلتهما يتعانقان مرة أخرى ومزقتهما إلى أربع قطع. فانفصل جسد سليم إلى نصفين والفتاة إلى نصفين، ثم قطع أصغر، ثم نثرتُ جميع القطع من نافذة غرفتي، لتختلط بتراب الشارع وطينه، يستحقان ذلك.

حكيتُ كل هذا له بصوتٍ مخنوقٍ باكٍ، وهو في الحقيقة- دكتور عمر- كان مستمعًا جيدًا، لم يُقاطعني، فقط كنت أراه يُدوِّن بعض الكلمات في دفتره.

في المرة الثانية كانت الأمور أكثر انسيابية، والحديث أخذ شكلًا وديًّا. فحكيت له عن مشكلتي، وما يحدث داخل عقلي، وعن الشبح الوسيم مُطاردي بأحلامي.

بدأ الأمرُ منذ نصف شهر، أول حلم رأيتني فيه أسيرُ مع أحمد خطيبي على البحر، تحتضن يده كفي في رِقة، نخلق حكاياتٍ عن عشاق مثلنا، جالسين بامتداد سور البحر، كنتُ سعيدةً جدًا في الحلم، وفجأة تغيرت نبرة صوت أحمد، فالتفتُّ إليه لأجد شابًا آخر يحتضن كفي، بفزعٍ سألته من أنت؟ أجاب بأنه حبيبي. لم أعترض، ولا أدري لِمَ لمْ أعترض، فقط تأملت ملامحه في حيرةٍ، تركت عينيه العسليتين تحملانني لبحور وأراضٍ لم أزرها، ملامح وجهه أسرتني بسهولةٍ، تركته يحتضن يدي ونسير معًا. ارتحتُ معه كأنه حبيبي من ألف عام، جلسنا في مقهى لم أزره

من قبل، أسمعني كلمات عشق وغزل جعلتني أذوبُ بمقعدي، ومن ثم استيقظتُ. شعرت بالخجل والذنب معًا، فتلك خيانة صريحة لأحمد، حتى لو مجرد أحلام، فالشعورُ بالذنب يُلازمني.
تكرر ذلك الحلم عدة مراتٍ باختلاف بعض التفاصيل الصغيرة، كل هذا طبيعي ومن الممكن جدًّا أن يحدث لأيٍّ كان، لكن الغريب، والذي أثار رعبي، هو أنني عندما ذهبتُ مع أحمد لنفس المقهى كان كما رأيته تمامًا في الحلم، حتى التفاصيل الصغيرة، نفس شكل الأكواب المُقدمة، نفس القائمة، كل شيء تمامًا كما الحلم باختلاف الشخص الجالس أمامي.
تملكني الرعب وانقبض قلبي، أصبح الشرود يُلازمني، كيف يحضرني مكان في أحلامي قبل أن أزوره في الواقع؟ كيف لعقلي المُثخن بالجراح والذكريات أن يختلقَ مكانًا من العدم بكل تلك التفاصيل الصغيرة؟ وكيف اختلق شخصًا لم أره من قبل وأميلُ إليه؟
أصبحتُ أخاف النوم حتى لا أصحو يُصاحبني ذلك الشعور بالذنب. رأيت نظرة الطبيب وأنا أحكي، يظن أنني مجنونة أو مريضة حقًّا، ولكنه مُستمع جيد جدًّا، فقد انتظر حتى أنتهي ليبدأ هو، لكن نظراته طوال الوقت كانت هادئةً وثابتةً، حتى عندما وصلتُ للجزء الغريب من حُلمي، لم يتأثر أو يُبدي أي اندهاش، مما أغاظني كثيرًا، لكنني فعلت مثله، أخفيتُ أي مشاعر من أن تقفز لوجهي، وتصنَّعت الهدوء.

"قولي لي يا ريم، أول ليلة لهذا الحُلم، أتذكرين تفاصيل هذا اليوم أو الأحاديث التي دارت بينك وبين أصدقائك أو خطيبك؟"
باغتني سؤاله، في أغلب الأحيان، أنا لا أتذكر ماذا أكلت بالأمس، فكيف بتفاصيل يوم كامل؟ أغمضت عيني، واعتصرت ذهني، رجوته أن يقف بجانبي ولو مرة، بدت بعض التفاصيل بالظهور وكأنها تقفز من قاع بئر سحيقةٍ معتمةٍ، باعدت بين رموشي سامحة لوميض من النور يقطع عتمة البئر، بعض النقط المظلمة استحالت بيضاء، ألتقطها في سرعة، اخبرته بأنني لا أذكر الكثير، فقط خرجنا أنا وأحمد للعشاء وتشاجرنا ولم نكمل اليوم ورجعت قرأت قليلًا ثم شاهدت بعض البرامج ونمت. دوَّن الدكتور بعض الكلمات في دفتره قبل أن يتابع بهدوء: "علام تشاجرتوا؟ من المهم أن أعرف".
- يعني، شِجار عادي يحدث دائمًا بين أي مخطوبين، احمد عينه زائغة، ضبطه ينظر لفتاة أخرى جالسة بجانبنا، فتضايقت لعدم احترامه لي وأصررت على الانصراف.
- اه، طيب، فاكرة ماذا قرأتِ يومها؟
أعادني سؤاله لصفحات عقلي المُعتمة، قلبت سريعًا بينها، أرهقني التفكير فتوقفت قائلة:
- لا، لا اتذكر، فأنا أقرأ كثيرًا كل يوم.
- طيب يا ريم .. جميل. الآن، اريدك أن تحكِ لي عن خطيبك قليلًا، وعن طبيعة العلاقة ما بينكم. جيدة، سيئة، يعني

..تفضلي.
تلك الجزئية بالذات لم أكن أود الحديث عنها، فكيف أحكي عن شيءٍ أجهله، وكيف أفسر مشاعر لا أعلم كنهها بعدُ؟
تنهدت قبل أن أجيب:
- ماذا أحكي؟ فأنا لا أعرف فعلًا هل أحبه أم لا. أحمد زميلي بمكتب الديكور الذي أعمل فيه، جيد؟ بصراحة هو شاب لطيف مرح، خفة ظله وروحه المرحة هما اللذان جذباني إليه. ويوم أن اعترف بحبه لي وافقت على الفور على الخطبة، لكن حتى الآن لم أحدد موقف مشاعري منه. امم .. ماذا أيضًا؟ اه .. انا أشك فيه، فعيناه زائغتان دومًا على البنات، أراه ينظر بخبثٍ، أتجاهل تارة، وأخرى أثور.
استمع إلي عمر جيدًا، وفي نهاية الجلسة أخبرني عن تحليله المبدأي الذي وضعه، كلام كثير عن ان كل ما امر به طبيعي، وأن العقل البشري لا يمكنه تخيل فرد أو مكان لم يره من قبل، بمعنى: ان كل أحلامنا التي نراها يوميًا، كل مفردات تلك الأحلام هي موجودة بالأصل بعقلنا الباطن، منذ الطفولة، أي صورة تقع عليها أعينا، في الشارع، في التلفزيون، أي تفاصيل صغيرة تدخل حيز بصرنا أو سمعنا لا تندثر أبدًا، كل هذا يُخزن في اللاوعي، في سراديب عقلنا الباطن، ويظهر مرة أخرى عند استدعاء عقلك الباطن له. كلام كثير غير مفهوم يريد به أخباري أني مجنونة. ثم كلام كثير أخر عن أن هذه

الاحلام تهاجمني بسبب أن الأحلام في الغالب تأتي لتحقيق رغبة بداخلنا، رغبة لم نستطع تحقيقها في الواقع، فتُعوضنا أحلامنا عن ذلك بخلق سيناريوهات وهمية، تُسعدنا بها. و ان أنا بداخلي رغبة أن أن اجد الحب مرةً أخرى، لا اجد هذا في أحمد، فاستدعى عقلي الباطن صورة شاب وسيم من بين ملايين الصور المحتفظ بها لأنجذب إليه.

كلامه منطقي جدًّا، لكنه لم يُقنعني، فهو كلام نظري لم يختبره هو بأحلامه، لم يختبر مثلي نفس طعم القهوة مرتين، ونفس الشخص الذي قدَّمها لي. التفكير يقتلني ببطء، وعقلي قريبًا سيُدمرني، أدرك ذلك.

*****

مذكرات الكاتب المجنون

٢

وصلتني أخبارٌ عن ذلك المجنون «سالم» أنه يبحث عني في كل مكان. هاها، وأن لوثةً أصابته عندما لم يجدني، ولقد أقسم مئة يمين على قطع رأسي إذا رآني، وسلْخ جلدي حيًّا، وتوعّد بقتلي في كل فصلٍ من روايته، حتى إنه قال: «إذا وجدت ذلك المجنون، سأهديه أرواح القطط، حتى أقتله أكثر من مرة، قتلة واحدة لن تشفي غليلي». هاها.

حتى إنه خلق شخصية أسطورية، لها صفات «شارولكية» و«كونانية»، يُخرج الإبرة من أطنان القش، وأطلقه يبحث عني، بين عوالم الكتب، قال له: «أكيد ستجده مختبئًا في رواية رخيصة مثله، كتبها كاتب سكير نصف موهوب، حتى لا نعثر عليه، أمسك أمه يا هرقل». هاها.

مسكين «سالم». لا يعلم أين أختبئ، أنا أختبئ في روايتي يا ذكي، التي أكتبها بنفسي (أرض الكراميل)، سأكشف للقراء فقط في منتصف الرواية عن شخصيتي، أما أنت يا مخبول، فاذهب

والحس قفاك.

نرجع لروايتنا الحلوة.. مبسوط يا «نزار» الآن؟ بعدما خربت حياتك بيدك؟ آه من النسوان يا أخي. آه، ذكرتني بـ«صباح»، وحكاية «صباح»، التي لا أحد ينساها، ملعونة، قرية بأكملها أُحرقت بسببها، كانت تمشي بدلال وغنج، تثير كل ما أنبتته الأرضُ حولها من رجال، حتى جاءت تلك الظهيرة، التي لا أحد ينساها أيضًا، الكل يركض كالمجنون، خلف «صباح»، يرشقها بحجر. ظنوا أن بموتها سينتهي العهر، لكن العهر فيهم هم يا أخي. ملاعين. على العموم يا صديقي، لا تقلق، لن أطيل فترة بؤسك الجميلة، سأقدّم لك حلًّا سحريًا في الفصل القادم، ستشكرني يا أخي. هاها، أما «ريم» فمسكينة، لا تعرف ماذا يحدث لها، أنا فقط أعرف، هاها، اصبري يا «ريم»، ما زلتِ لم ترَي شيئًا بعدُ. ليس لعداوة شخصية صدقيني، أنا أحبك يا حلوة، وأراكِ مثيرة، لكن ظروف الرواية تحكم. ولكن في المقابل يا «ريم» سأمنحك سعادة، جنونًا مع سعادة، جميل؟ أتمنى ألّا تكرهيني في النهاية يا حلوة. حسنًا لنكمل..

نزار
الإسكندرية
يناير، ٢٠١٥

مرَّ أسبوع وانتصف الثاني، ومصيرُ ذلك الكيس بجيب الجاكيت الجلدي لم يُحدد بعد. منذ أسبوع تحديدًا، وذلك الكيس أصبح شريكَ صباحاتي، أتفحصه بعين مرتابة رافعًا إياه بيدي اليسرى بينما اليمنى تُداعب سيجارتي على حافة المطفأة. سيجارتي تُحب المُداعبة، أدرك ذلك. منذ وحدتي، والعلاقة بيننا أصبحت حميمية للغاية، أخصص لها من الوقت والمال ما لم أفعله مع أحدٍ من قبل، حتى في البنك، أنجز ما في يدي سريعًا، وأنسلّ لأنفرد بها في الركن المُخصص لنا، نُقبل بعضنا ببطء وتلذذ، مع كل قُبلة نشوةٌ جديدةٌ تسكن صدري، حتى إذا انتهيتُ منها، لا ألقيها بجحود وأدهسها بقدمي، بل أتركها جانبًا بأي ركن؛ تلفظ أنفاسها الأخيرة بسلام، وقبل النَّفس الأخير، أجدد روحها بسيجارةٍ جديدةٍ، كما أفعل الآن، وأنا أعيد رفع ذلك الكيس أمام عيني وأهزه لأرى تبعثر المسحوق الأبيض بداخله بأركان الكيس. مسحوق ناعم، يُشبه الدقيق وبودرة المخدرات. كيس سقط من الجنة سهوًا على حسب وصف صديقي.

تفاصيل ذلك اليوم- الذي قابلتُ فيه صديقي من العمل القديم- أذكرها جيدًا، يوم أهداني ذلك الكيس واعدًا إياي برحلةٍ قصيرةٍ إلى الجنة. كنا صديقين نعم، ولكننا كنا مختلفين

تمامًا. هو شخصية سوداوية متشائمة. الحياة، بالنسبة له، عبارةٌ عن نهرٍ أسود يجري بأرضٍ مُقفرة بليلةٍ مظلمةٍ.
وكنت أنا، على العكس تمامًا، كنتُ حلو البسمة، والتفاؤل يملأ صدري، بوجهٍ حسنٍ بشوشٍ ونَفسٍ مُشرقةٍ، أقابل الجميع.
مؤخرًا، تبدلت أحوالنا، كأن أحدًا ما سرق أرواحنا نيامًا واستبدلها.
كنتُ أظن، هذا التحول الجديد سببه حب جديد وقع فيه، وهو ما نفاه لي حين تقابلنا، وأكد لي أن تلك المادة ستصحبني في رحلةٍ لم أذهب إليها أبدًا.
سألته أكثر من مرة: "هل هي مخدرات؟ هل تسبب الإدمان؟".
نفى، وقال إن كانت تُسبب إدمانًا فهو إدمانٌ للسعادة المنبثقة منها لا للمادة نفسها، وقال أيضًا إن كانت تُساورني شكوكٌ فسيصحبني لمحاضرةٍ تعريفيةٍ عند صانع تلك المادة حتى أطمئن.
أثقُ في صدق نية صديقي لمساعدتي، ولكن لا أثق في تلك المادة؛ لذا قررتُ أن أذهب للمحاضرة معه، فلن أخسر شيئًا.
في شارع هادئ جدًّا وسط منطقة لوران، كانت تقعُ عيادة الدكتور فريد، مخترع تلك المادة كما قال صديقي، كان رجلًا حلو المبسم، شيب شعره زاده وقارًا، وجه أبيض مائل للحمرة وعينان خضراوان؛ كانت ملامح طبيب بالفطرة، وما أن جلسنا أمامه- يفصل بيننا مكتب ضخم بدت هيئة جلوسه

وراءه كحارس مرمى يتأهب لصد ضربات الكرة- حتى شرح له صديقي عن سبب قدومنا، ثم غمزني بعينه، بدأ حديثه قائلًا ببطءٍ:

- "أوكي، هنساعدك. لازم تعرف أن هدفنا خيري وغير ربحي، ولكننا وعلى الرغم من ذلك نعمل بسريةٍ، أوكي؟ نبحث عن كل البائسين واليائسين، عديمي الرغبة بالحياة، المكتئبين، اللامنتمين لعالمنا، الراغبين بالانتحار، محبي العزلة، كل هؤلاء، نبحث عنهم؛ لنحاول- ولو بطريقةٍ بسيطةٍ- منحهم أي سعادةٍ ممكنةٍ عن طريق تلك المادة.

كالجمر أخذت الشكوك تُلهب صدري، ساعد على تأججها كلمة "سرية"، ولفحت عقلي بأسئلةٍ كثيرةٍ: "ولماذا السرية إذا كان الهدف نبيلا؟ إذا كان بإمكانكم تحقيق السعادة للناس جميعًا، لِمَ لا تقومون بذلك؟"

وقف الدكتور فجأةً، ولا أعلم إذا كان سؤالي السبب أم أن هناك سببًا آخر، وقف واتجه ناحية النافذة ناظرًا للفراغ بالخارج مفكرًا ومولينا ظهره قبل أن يُجيب بنفس الهدوء:

- أوكي، يبدو انك لا تفهم. انتشار تلك المادة ورواجها يعني وصولها ليد الكبار ومن ثم احتكارها، هل تعتقد أن الأنظمة ستسمح لشعوبها أن يكونوا سعداء بتلك السهولة؟ إلا إذا كنت تظن أن الخراب، والجوع، والحروب، والأمراض، والخوف من مسببات السعادة للشعوب. ها؟

مافيا الأدوية سيُسرون بذلك الاختراع ويقفون مكتوفي الأيدي؟ يبدو أنك لا تُقدر الأمور حق قدرها، أو أنك بالفعل لا تدري كيف تسير الأمور بهذا العالم.

استدار إلينا، اقترب من غرفةٍ جانبيةٍ مشيرًا إليها قائلًا:

- هنا معملي. أنتج كمياتٍ صغيرةً، تكفي بعض العملاء المحدودين، والعميل يدفع ثمن التكلفة فقط، فأنا لا أتربح بحق من ذلك الأمر، سامع يا نزار؟ أطلقت على ذلك الاكتشاف اسم (M.D) اختصارًا لـ (Morpheus dreams) نسبة لآلة الأحلام قديمًا.

جذبني الحديث، خفتت الشكوك قليلًا، وضعتُ ذقني بين الإبهام والسبابة مستندًا بكوعي على ظهر المكتب متسائلًا:

"وماذا يفعل هذا الـ (M.D)؟"

ظهرت الحماسة قليلًا في لهجته هذه المرة وهو يقول:

- طيب، الأمر مُعقد، لكن دعني ابسط الأمور. كم من المرات رأيتَ بمنامك حُلمًا جميلًا ووددت لو أنه دام للنهاية ولا تباغتك يقظة مفاجئة؟ وبمجرد يقظتك، اخ تنسى ذلك الحلم، تنسى كل ما مررت به من تفاصيل صغيرة داخله. عارف السبب؟ .. طيب، أحلامنا الجميلة الوردية يمحوها ملك الأحلام ولا تتبقى منها سوى حالة باهتة سببتها لنا، عكس الكوابيس التي تعشش بذاكرتنا وتحفر ممراتٍ بدماغنا تسمح لها بالجريان طوال الوقت.. أوكي ..الفكرة ببساطة: لماذا لا نخلق

لنا عالمًا آخر؟ حتى لو بأحلامنا، عالمًا موازيًا لواقعنا العفن، نحيا به كما نريد نحن، لا كيفما يريد الناس.
أخذت الحماسة دكتور فريد، وجدته يندفع أكثر في الشرح، احمر وجهه، ولمعت عينيه وهو يقول:
- أوكي ..تخيل معي نزار، أحدهم فتح الباب، وركلك بقوة إلى هذا العالم. أنت منذ مولدك في حالة دهشة تتساءل عن سبب قدومك، وعن سبب عدائية العالم معك. كل الأمور تجري عكس ما تريد، لا شيء تفعله صحيح، لا شيء يصل للنهاية في صورةٍ جيدةٍ. العالم يقف أمامك كالوحش الخرافي الذي لا يريد عبورك. مهمته إيقافك، أو دهسك، أو قتلك. أوكي؟ الـ (إم دي) ببساطة سيجعلك تُعيد صياغة العالم، أو بمعنى آخر، العالم كرة لينة بين يديك. عجينة طرية يا نزار تشكلها بخيالك. كل حواسك تحت سيطرتك. ستعرف لأول مرة، معنى أن تحيا في عالم، أنت خالقه. عالم، لا قواعد فيه، لا قوانين، لا جمود، عالم حي بحق وليس راكدًا كواقعنا. لن تجد الدماء تلتصق بحذائك كلما سرت، لا فئران تتقافز حولك من كل مكان، عالم نظيف.
كلماته اخترقت رأسي كطلقات الرصاص، كل ما سرده الدكتور يُمثلني، بالفعل أحدهم ركلني إلى هنا رغمًا عني، بدون أي إرادة، وأنا لا أطيق المكوث هنا فعلًا، نهضت من مكاني وقلتُ له:
- دكتور، بالفعل أنا مرهقٌ جدًا. كما أنني لن أبالغ إذا قلتُ

إنني يائسٌ جدًّا. هذا العالم لا يُناسبني حقًّا، حياتي عبارة عن سلسلة من الإخفاقات اللانهائية، كومة من الفوضى المُبعثرة، وكأنني وقعتُ في بالوعة من الخراء، الرائحة كريهة، ولا أقدر على الخروج، وكل ما حولي يخنقني. دكتور، لديَّ أحلامٌ كثيرةٌ، عن الحب والجنس والحرية، لديَّ أحلامٌ مثيرةٌ عن الحرية، ساعدني في تحقيقها من فضلك!

- أوكي نزار، قبل النوم، دع الأفكار ترقص أمامك، التقط منها ما تود تجربته، ستجد الأحلام تنسابُ برقة كالماء، اسبح معها واغرق إن شئت. فقط حاول ألا تطيل فترة النوم عن المدة الطبيعية، حتى لا ينقلب الأمر عليك.

***

في المساءِ، أحضر كيس المسحوق الأبيض، أتساءل عن ماهية شكل عالمي الأول. أنا ما زلت وليدًا في خلق الأحلام. لا أعرف كيف يتم بناء العوالم، ولكن لدي مفرداتٍ كثيرةً التي بموجبها ستتحقق السعادة المطلقة، وعلى أساسها سيتم البناء. مفردات مثل المال، الحب، السلطة، الجنس، بمجرد سماعها تغمرك السعادة. بماذا أبدأ؟ أنا أحتاج الأربعة، ولكن يجب أن أعترف، أن الجنس تحديدًا هو أكثر ما أفتقده.

منذ وحدتي، وشهوتي لا تنطفئ. صور جنسية- صورعديدة- كانت أول ما توارد لذهني، وأنا جالسٌ أمام الطبيب. وكل تلك المفردات التي سقتها أولًا ما هي إلا محاولة رديئة لإخفاء ذلك

الافتقاد داخلي.

ارتحت عند وصولي لذلك الرأي. الليلة ستتناثر حولي أجسادٌ مُثيرةٌ، ناعمة وعارية. بين سيقانها بحرُ عسل. أشعر بالنشوة من الآن.

أجلسُ على الأريكة. أفتح الكيس، أفرغ المسحوق الأبيض على المنضدة الزجاجية أمامي. أخرج الحافظة وألتقط أول ورقة نقدية تبدو جديدة. أسطر المسحوق بطرف الورقة، كأفلام السينما تمامًا، ألف الورقة لأجعلها في شكل أسطواني مُفرغ، أضع طرفها الأول عند أول سطر المسحوق، وطرفها الآخر عند أنفي، وكمدمنٍ مُتمرس، حتى نهاية السطر، أسحب.

***

ريم

الجنون قريبًا مني، أشعر به. سيُتلف عقلي، سيُصيب الجزءُ المعطوبُ الجزءَ السليمَ منه، تمامًا كالتفاحة المعطوبة، وسيُصبح رأسي قريبًا خاويًا بلا عقلٍ، سأسيرُ بين الناس بأقدامٍ مُرتعشةٍ وعينين زائغتين ورأس خاوٍ.

لطالما تساءلت عند رؤية المجنون بالشارع، كيف وصل به الحال لهذا؟ ماذا تحديدًا أصاب عقله وأتلفه إلى ذلك الحد؟ ربما ستتاح لي الفرصة قريبًا أن أختبر ذلك الشعور.

قال لي دكتور عمر اليوم إن عقلي يختلق تلك الأحلام كمحاولةٍ لإسعادي. هل يهتم بي عقلي إلى هذا الحد؟ أم أنه تمامًا كالقدر مراده القضاء عليَّ؟

أشعر بالحيرة تملأ صدري وتشل تفكيري. وأحلامي تنسج حول قلبي خيوطًا، وتعلقه بها. فأجد قلبي يميلُ لفتى أحلامي الوسيم، فأسارع كل مساء مبكرًا إلى فراشي، أغلق نافذة غرفتي، والباب أيضًا، والهاتف، وأتأكد أن المنبه لا يعمل، وأنام.

أعجب من درجة البؤس التي وصلتُ إليها، أنفصلُ عن حياتي وأنام حتى أشعر بقبسٍ من الفرحة.

لا أعرف لماذا أجدني غير مقتنعةٍ بكلام دكتور عمر، على الرغم من منطقيته؛ حتى عندما حكيتُ له حلمي الأخير، فسَّره لي تفسيرًا معقولًا، لكن دائمًا لا أقتنع، ربما لأني لا أريد أن أشعر بأني مريضة فعلًا، ألا يكفيني من الصدمات؟ ولكنه لا يرى ما أراه. تلك ليست مجرد أحلام، لقد اختبرت الأحلام مرارًا، ليست كتلك أبدًا. أن تعيش وكأنك في واقع، تشعر بكل لمسةٍ، وتصحو متذكرًا كل تلك التفاصيل، تلك ليست أحلامًا.

ولكني حقًّا أرتاح في الحديث معه، يُعاملني بود شديدٍ، لا أدري هل يعامل الكل كذلك؟ أم أنا فقط؟ حتى نظراته لي اليوم كانت تحمل ودًّا حقيقيًّا، وذلك جرأني بأن أناديه بعمر فقط. ففارق السن ليس كبيرًا بيننا، كما أنه شخصية جيدة للمصادقة.

قبل أن أحكي له عن حلمي، تكلمنا كثيرًا عن حياتي وحياته، عرفته أكثر اليوم. تبادلنا الأدوار فكنتُ أنا من يلقي بالأسئلة معظم الوقت حتى قطع أسئلتي قائلًا:

- هيا احكِ لي ما رأيت!

أرحت رأسي للوراء، أغمضت عينيَّ، وحكيت له عن الحلم الواحد، الذي يُعاد بكل تفاصيله كل يوم، وكأنه شريط سينما، بمجرد النوم، هناك من يأتي ويضعه بعقلي ويُديره. حلم جميل يُسعدني كل صباح ولكن نهايته بها جزءٌ مؤلمٌ.

***

الحلم

أحلم بأني واقفة أنتظر أحمد خطيبي، قرب شاطئ البوريفاج، ولم يأت. وقبل أن أذهب أجد ذلك الوسيم يقترب مني مبتسمًا ويسألني: هل تأخرت؟

- "لا"، أجيب أنا بدون تفكير. يلتقط يدي بهدوءٍ ويُقبلها ثم يحتضنها ويسير بي.. وأنا كالمسلوبة، فقط أسأله بخجل: إلى أين سنذهب؟ إلى الشاطئ، فيرد هو. أصمت وأسير رفقته، سعيدة، وأتمنى في نفسي ألا تنتهي تلك اللحظات، أتركه يُداعب يدي بأنامله، وأخجل كلما رفعها إلى شفتيه ليلثمها. وصلنا إلى الشاطئ، وكنا شتاءً، تمامًا كتلك الأيام، الشواطئ تخلو من الناس في ذلك الوقت، فكان الشاطئ ملكنا وحدنا، نظرتُ في

ساعتي، كانت تشيرُ إلى السادسة والربع، جرينا وراء بعضنا البعض في مرحٍ، قذفت حبات الرمال عليه، رششنا بعضنا بقطرات ماء البحر الباردة، وعلى الرغم من برودة الجو يا عمر، فإنني لم أشعر بأي برودة بجسدي. وبعد أن أنهكنا التعب، تمددنا على الرمال، أمسكنا بأيدي بعض، ونظر إليَّ واقترب مني وقال: أحبك.. وقبَّلني.
مهما حكيتُ لك عن شعوري تلك اللحظة سأعجز عن الوصف، لكني كنتُ سعيدةً جدًّا، وودتُ لو تمتد تلك اللحظة للأبد، ولكن للأسف النهاية جاءت سريعة.
من بعيدٍ لمحنا حصانًا قويًّا يركض بقوةٍ تجاهنا ممزقًا من تحته تلك الحصيرة المنبسطة من الرمال التي رسمها الشاطئ.
وقف الوسيمُ يُحركه القلق وكذلك وقفتُ أنا، ترك يدي ووجدته يبتعد عني في اتجاه ذلك الحصان، لم يُهدئ من سرعته، وكان التصادم حتميًّا، توقف قلبي واتسعت عيناي برعب، اصطدم الحصانُ بالوسيم ولكن لم يقذفه بعيدًا كما توقعتُ، اخترقه، ووجدته يمتطيه بعدها ويركض به بعيدًا، ومن ثم استيقظت.
استيقظتُ بداخلي مشاعر مختلطة، سعيدة بمحتوى الحلم، حزينة قليلًا للنهاية، وأشعرُ بالذنب تجاه أحمد. تلك خيانة صريحة، لا مُسمًّى آخر لها.
كان الحلم غريبًا، ولكنه على الرغم من ذلك، لم يؤثر في عمر، لم تتبدل تعابير وجهه حتى، فسألته:

- أنا لا أدع أحمد يُقبلني، وأوقفه كلما حاول، فلماذا أفرح بتلك القُبلة؟ وأركضُ إليها كل مساء، كحبيبةٍ تلقى حبيبها بعد فراقٍ. قل يا عمر ما هذا؟ ما تلك الأحلام؟ قل لي أيضًا، هل هناك رموزٌ في حلمي؟ بمعنى.. أنا أسمع أن البحر في الحلم يعني الرزق؟ هل ذلك صحيح؟

تنحنح عمر قليلًا، أفرد عدة ورقات أمامه كان يُدون بها أثناء حكيي، صمت كثيرًا مفكرًا قبل أن يقول: طيب يا ريم، شوفي، خليكي عارفة إن الطفولة مهد الأحلام. وكثيرًا ما تستمد أحلامنا في الكبر مادتها من الطفولة، فاهمة؟ بالطبع هناك رموز، ولكن دعك من تلك الخرافات، لا يوجد ما يعني أنه إذا رأيت هذا سيرمز إلى هذا. خرافات، ها؟ النفس البشرية لا تُفسر بتلك البساطة، والعقل البشري لا تنفك رموزه بتلك السهولة التي يتداولها الناس بجهل.

اه اتفق بعض العلماء على رموزٍ معينةٍ إذا ظهرت ففي الغالب لها مدلول معين، لكن عمومًا، النفس والعقل أشياء مُعقدة ومُركبة، كلما أزلت طبقة من الغموض بدت لك طبقة أخرى أكثر سماكة، ونحن الأطباء؟ اه .. علينا أن نغوص في أعماق الأنفس، ونُحارب في دهاليز العقل، علينا أن نزيل تلك الطبقات الواحدة تلو الأخرى حتى يتجلى لنا رموز العقل وحقيقة النفس.

ولما سألته عن الرموز في حلمي، كان لا يريد أن يجيب، وعندما

ألححت عليه، تردد قليلًا قبل ان يقول:
- في حلمك هناك رمزان مهمان، البحر والحصان، ولكنهما- يا ريم- ما يرمزان إليه بالنسبة لكِ غيري تمامًا لو رأيتهم أنا. حلمك مباشر، به إسقاطاتٌ من الماضي، أنتِ في حاجة لذلك النوع من الحب، لذلك عقلك يُحاول تحقيق تلك الرغبة برسمها لك، عن طريق الأحلام. ولكنك بداخلك تخشين أن تنتهي تلك السعادة كما انتهى أي شعور جميل من قبل، لذلك أكمل عقلك الصورة بالشاطئ والحصان.
- وما علاقتهما بذلك؟ سألت أنا.
سكت برهة، شرب كوب ماء قبل أن يقول :
- آه، أقول لك، حكيت لي، أن والديك فُقدا نتيجة حادث سيارة بسبب السرعة قرب الشاطئ، وواضح جدًّا أن البحر يعني ويرمز عندك إلى الفراق، فبالقرب منه تم فراقك عن أهلك، والحصان يرمز للسرعة، فبسبب السرعة تم الحادث، وأنتِ تكرهين السرعة التي سببت لك ذلك الألم.
أما عن الساعة، كانت تشير إلى السادسة والربع، وهذا كان عمرك عند تلك الحادثة، لقد قلتِ سابقًا إن تلك الحادثة حدثت عندما جاوزتِ السادسة ببضعة أشهر، في الغالب ستكون ثلاثة أشهر كما تشير الساعة؛ لذلك عقلك رسم الحلم بتلك الصورة، فهو يُحاول إسعادك، نعم، لكن عقلك الباطن ونفسك يظهران نفسهما عن طريق الخوف من انتهاء تلك

السعادة، فهمت الآن؟

فهمتُ كل ما قاله لي عمر، لكني أبدًا لم أقتنع، عقلي- الذي يُحاول إسعادي كما يقول عمر- يرفض أن يقتنع بأنني مريضة فعلًا، لكن لماذا أذهب إليه إن لم أكن مريضة؟ فهو طبيبٌ نفسي، أعترف أن هناك خطأ، الأمور لا تسيرُ كما يجب أن تكون بعقلي، ولكني لستُ مريضة لدرجة الجنون، ولا لدرجة اختلاق أحلام أحيا بها هكذا. عقلي يمثل لي لعنة الآن. فقط أريده أن يهدأ قليلًا، وأن يكف ولو قليلًا، عن التفكير.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٣

«الحياة نكتة بذيئة». لا أذكر أين قرأتها، لكنها حقيقة، نكتة بذيئة تضحكني كل يوم. هاها. لا أستطيع التوقُّف عن الضحك عندما علمتُ ما حدث لـ«سالم» المجنون. بعدما فشلت شخصيته الأسطورية «هرقل» في العثور عليّ، أقسم برب السماوات أن يقتله قتلة بشعة، مثل أن يشوي لحمه حيًّا أمام جميع شخصيات روايته الدموية، عندما سمع «هرقل» بما سيحدث له، استغل نوم «سالم»، وقفز هو الآخر من المخطوطة، هاها، وسمعت أنه تنكَّر في هيئة رجل صيني، ويعيش الآن في رواية صينية من العصور الوسطى، وليصدقه الناس مثَّل أنه أبكم. هاها، مسكين «سالم»، كاتب فاشل، لا يجيد إحكام شخصياته، يذكِّرني بكُتَّاب هذا الجيل. وكُتَّاب وسط البلد، آه، نصف شخصياتهم تهرب منهم يا أخي، ما علينا، دع الخلق للخالق، ووسط البلد للكتاب، هاها.

آه، نرجع لـ«نزار» و«ريم»، ما رأيك يا «نزار»؟ حل سحري؟ ها؟ عالم بديل يا صديقي، سأدعك أنت

تقرر وترسم عالمك، على الرغم من أني أعرف ما يدور في بالك؛ النسوان، أليس كذلك؟ عمومًا أنا سأرفع يدي عنك، سأكتب ما تقوله لي، أريدك أن تدهشني. وأنتِ يا «ريم»؟ جُننتِ أم ليس بعدُ؟ ها، الصبر الصبر، عقلك سيشبه خلاطة الأسمنت، أنا أحبك يا «ريم» وسأسعدك في نهاية الرواية، أعدك بذلك.

وأنت يا «عمر»، تشرح وتحلل وتفسر الآن؟ ها؟ تظن نفسك الشيخة خديجة، أم ظننت نفسك طبيبًا نفسيًّا حقيقيًّا؟ أنا الذي أضع التفسيرات في رأسك يا معتوه، وعلى الرغم من أن «سالم» مجنون، فإنه جعلني مثقفًا، أحفظ كتب «فرويد» عن الأحلام، لماذا لم تقُل لها إن «فرويد» يقول كذا وكذا؟ تريد أن تبهرها برأيك؟ ها؟ آه، أعرف أنها تعجبك وتثيرك، رأيتك تنظر لصدرها، هاها، تظن أنه لا أحد يراك، كلما انطلقت هي في الحكي، تمثل أنك تدوّن ملاحظات وتبصبص. سأحشّم «ريم» المرة القادمة، أريدها رواية نظيفة، دون بذاءة، أنا لا أحب جرح مشاعر بعض القراء الحساسين.

حسنًا، لنكمل يا شخصياتي الحلوين..

نزار
الإسكندرية
يناير ٢٠١٥

ما شعورُ من يتناول المخدرات؟ في العموم، وبالأخص من يتناولها عن طريق الأنف؟ لطالما تساءلت، بالطبع لم أعرف الإجابة، لأنني لم أحاول، ولكني أدرك- منطقيًّا دون الحاجه للشرح- أن محرابي الأنف أسهل الدروب للعقل. وأن أول مَن سيستجيب هو عقلي، سيأخذ حصته ويوزع ما تبقى على أبنائه الحواس.

عقلي منظمٌ جدًّا، مُنظم وعادل، أثق فيه، لطالما ساعدني على تنظيم واقعي الرتيب، وأثق في قدرته الآن أيضًا. تأكد ذلك الشعور مع وصول أولى ذرات تلك المادة عبر الورقة النقدية إلى أنفي، لم تخفف سرعتها تلك الشعيرات بتجويف الأنف، بل انطلقت كالطلقة، لتنفجر على جدار عقلي، تمامًا.

أشعر بالدوار، ذرات المادة الميتة تحيا فجأة في رأسي، تدور حول عقلي بسرعةٍ، تحمل عقلي لأعلى وتضرب به بعنفٍ قاع رأسي، أمسك جانبي رأسي بقوةٍ محاولًا تثبيته، يهدأ الدوران وتهدأ الذرات الهائجة. أجفاني ثقيلة، أجاهد لفتحها، والرؤية الصافية احتلتها دوائر كثيرة، دوائر مشوشة تتراقص خلفها المنضدة، السجادة، شاشة التلفزيون، وكرسي الأنتريه. كل دائرة تحمل جزءًا من الصورة، تتداخل الدوائر أكثر لتشكل مزيجًا

من الألوان، بُني المنضدة مع سواد الشاشة، والأحمر، والبيج، والأبيض أيضًا. يتحول كل شيء للأبيض. أحاول أن أقف فلا أقدر، أحاول مرة أخرى، أنجح بصعوبة.
أقف ونورٌ يغمرني، نور ألق، يُحيطني من كل جانب، أحجب عينيَّ بكفي، ينحصر النور رويدًا، تعاود الرؤية الظهور بخجل، فأجدني أقف بأرضٍ ممتدةٍ، تعجز عيناي عن بلوغ منتهاها. أسير ببطء متأملًا ما حولي، الأرضُ من حولي ليست صحراء ولكنها تشبهها، الأرض صُلبة تحتي ولا رمال، لكن النخل متراص على الجوانب. وهناك بعيدًا قليلًا، تقف سيارة سوداء فارهة، وبداخلها رجل، رجل غريب، لم أره من قبل، أشير له فتقترب السيارة نحوي وتتوقف أمامي. أجلس في المقعد الخلفي، وأسأل إلى أين ستذهب؟ أنت من ستحدد ولست أنا، أجاب السائق.
هل يمكنك الذهاب لباريس بالسيارة؟ يمكنني الذهاب لأي مكان تريده، كل ما عليك هو أن تفكر فيه.
انطلقت السيارة بسرعة، وراء الأرض الممتدة ظهرت حقول خضراء، ثم ارتطم نظري فجأةً بزرقةٍ قاتمةٍ. اكتشفت أننا وسط المياه حينما رفعت زجاج السيارة قليلًا لأتفادى هجوم قطرات الماء المتطايرة- الناتجة عن ضرب إطارات السيارة للماء- داخل السيارة، فبالتأكيد لا أريد أن أصل باريس مبتلا.
وراء المياه ظهرت عدة مبانٍ، تتشابه في ارتفاعها الشاهق، ثم

الإيفل، اجتزته بنظرةٍ عابرةٍ، حتى توقف السائق أمام فندقٍ ضخمٍ أبيض. "لقد وصلنا" يقول السائق.

أقف قليلًا أمام مدخل الفندق أتأمل ما حولي، أترك تيارات الهواء الباردة تُداعب شعري، رغم برودة الهواء إلا أنه أنعش صدري، هواء نقي، هل يطوف ذلك الهواء شوارع باريس كلها؟ لكن الأجواء غائمة، لا وجود للشمس.

أنظر لساعتي، لفظت عقاربها أنفاسها الأخيرة عند الواحدة تحديدًا، يجب أن أشتري أخرى جديدة من هنا، من باريس.

أنظر حولي مرة أخرى، السيارات تسير بهدوءٍ وانتظامٍ، منظر شاذ لم تعتده عيناي، كل شيء نظيف، وملون، الشوارع مبهجة للعين، يبدو أنها كانت تُمطر منذ قليل، فالشوارع كلها مغسولة جيدًا؛ لتضفي وتزيد من جمال الصورة، أشعر- أحيانًا- بتحيز الطبيعة لمواضع معينة بالعالم، وإنها- الطبيعة- لا تُعامل أبناءها من بقاع الأرض سواء، رغم أن الكون بأكمله وليدٌ للطبيعة الأم، إلا أنها مثلنا، نحن البشر، تحب وتكره، وتنحاز، هذا أكيد، ودليلي هو نقمتها المستمرة على بعض البقاع بالعالم، دون غيرها، فتحيل أماكن جحيمًا وأخرى جنانًا. وهنا، بباريس، الطبيعة منحازةٌ بشدةٍ، وسيؤدي هذا- في رأيي- بعد الانحياز المستمر والإهمال المُتعمد لثورة، ستنهض بقاع العالم المهملة لتحتل تلك الجنان، سيثور العالم القذر على العالم النظيف، سيأتي بقذارته هنا، لا ليعيش في الجنان ولكن ليلوث ذلك

الجمال بقذارته، انتقامًا منه على تركه هكذا وحيدًا بقذارته، دون إنسانية.
تلك جريمة ولا شك، الطبيعة والإنسان شركاء فيها لا مفر.
أترك كل هذا خلفي وأعاود النظر للفندق، فندق ضخم، أتساءل في سري عن عدد غرفه.
أجتاز المدخل بهدوء لتستقبلني حسناء باريسية مثيرة، ترتدي شورتًا أزرق قصيرًا جدًّا، ولا شيء بالأعلى سوى حمالة صدر رفيعة تظهر بوضوح نهدين أبيضين منحوتيْن ببراعةٍ، نافريْن ويمكنهما اقتياد كتيبة عسكرية أمامهما للحرب. أشعر بالإثارة الآن، أدرك ذلك من الانتفاخ الشديد بالأسفل، ومن الحمى التي أصابتني فجأة، ومن الواضح جدًّا أن الليلة ستكون بديعة بحق.

أقف متسمرًا أمام الفتاة، تبتسم لي وتقول بالفرنسية: الجميع بالأعلى بانتظارك. أنا لا أفهم الفرنسية، هذا أكيد، ولكني فهمت ما قالته بسهولةٍ عندما ظهرت الترجمة أمامي على الهواء، كما لو أننا في فيلم.
لم أتوقف كثيرًا عند تلك النقطة أصعد لأعلى وأنا أفكر من تقصد بالجميع، أنظر خلفي وأجد المثيرة ما زالت واقفة، ونهداها ازدادا إثارة من أعلى، وأسفلي ازداد انتفاخًا، أود أن أسألها ألن تأتي معي؟ ولكن فضولي يدفعني لأعلى لأرى المدعوين بالجميع.

أصلُ لممرٍّ فاخرٍ، تتراص الغرف على الجانبين، كل أبوابهم مغلقة، وبين كل الغرف علقت على الحائط لوحات تشكيلية عديدة، أرضية الممر مليئة بأوراق الورد، ألوان كثيرة مبهجة، وروائح أكثر مثيرة بالجو، الضوء الأبيض الداكن يغمر جوانب الممر.

أقف أتأمل اللوحات من مكاني. على اليمين، بعد أول غرفة، لوحة زرقاء لرجلٍ عجوزٍ أعمى، ملابسه رثة يُمسك جيتارًا بإهمالٍ ويعزف، يتخذ وضعية جلوس غريبة وغير مُريحة، ولكن الأغرب أني أعرف اسم اللوحة، عازف الجيتار العجوز، لا أذكر أني رأيتها من قبل فكيف أعرف اسمها؟

أنظرُ للوحة الأخرى، لوحة جميلة تثير مشاعر جميلة في النفس، فتى يبدو وكأنه نائمٌ تحتضنه بحب فتاةٌ عاريةٌ، شعرها ذهبي طويلٌ، تقبله بشوق، قفز الاسم في ذهني فجأة، (لوحة الصياد والحورية)، أتعجب من معرفتي أسماء تلك اللوحات، أتقدم للأمام قليلًا لأسير بين الغرف، أول غرفة على اليسار وضعت يافطة ذهبية صغيرة مكتوبًا عليها بالأسود(Eva Green) ، أصعق من الاسم، هل إيفا حقًّا بالداخل؟ هل كل ما يفصلني عنها هو ذلك الباب فقط؟

أهم بالدخول إلا أن الفضول يقتلني، أتقدم للأمام لمعرفة باقي الأسماء.

الغرفة الثانية على اليسار لافتة أخرى تحمل اسم(Sophie Marceau) ، أفرك عينيَّ والذهول ينهش عقلي، ما معنى أن تكون تلك آلهة الجمال الفرنسية بالداخل؟
تزدادُ ضرباتُ قلبي مع كل خطوة، لا أدري تلك السرعة تحركها السعادة أم الإثارة؟
أعلم أنني أحلم، ولكن، كيف لحلم أن يكون بتلك الروعة؟ وهل ذهني من جلب هؤلاء؟ أتقدم أكثر لأصل للغرفة الثالثة والأخيرة بالممر- الذي في بدايته كان يبدو أطول من ذلك- لأجدها تحملُ نفس اللافتات الصغيرة مع اسم جديد أعشقه (Audrey Tautou) .
قدماي الآن تكادان لا تحملانني، لا يمكن أن يكون كل ذلك حقيقيًّا، أدرك أنه ليس حقيقيًّا، ولكن لا يمكن أيضًا أن تكون أحلامنا بتلك الروعة، هناك شيء خاطئ حتمًا.
أقفُ أفكر أي غرفة يجب أن أدخلها أولًا، الاختيار صعب جدًّا، الأمرُ وكأنني أقفُ بباب الجنة وخازنها يُخيرني بين ثلاثة أبواب، كل باب، خلفه عالم مختلف من النعيم. أقرر أن أبدأ من بداية الممر، أرجع مرة أخرى للبداية.
ألقي نظرةً سريعةً على الغرف التي لم أتفحصها على يساري، ألاحظ عدم وجود أي أسماء، كلها خالية من أي تعريفات، لكن ذلك لا يمنع بالطبع دخولها، في وقتٍ لاحقٍ. أعود لحجرة إيفا، أطرق الباب عدة طرقات، يأتيني صوتٌ ناعمٌ، عذبٌ، مثيرٌ

للدخول، ضربات قلبي كحفار ضخم، تضرب أعماق روحي فتصدعها، ودمي كبركان هائج، يفورُ بكل جسمي. أدخل ببطء، تقع عيناي على جسدٍ فاتنٍ عارٍ، تستلقي صاحبته على فراشٍ مستديرٍ، تستلقي على جانبها، ساندة رأسها بيدها، تاركة نهديها يتدليان في إثارة، تشير لي أن اقترب، اقترب وأنا أتعرى، تصلُ شهوتي لذروتها، تتلقاها إيفا بشغفٍ. يشل عقلي، كل ما يعمل، هو أسفلي فقط .

فكرت: هل تلك إيفا الحقيقة حقًّا، أم أنها صورة وخيال؟ وهل لو أنها صورة، هل تشعر إيفا الحقيقة بما يحدث الآن.

تنتزعني تأوهاتُ إيفا من أفكاري، يطول الوقت، أكثر من المعدل الطبيعي، تخمد نشوتي أخيرًا، لم أعتد أن أستغرق كل هذا الوقت، في المعتاد، كنت أصل لهذه المدة ببلع بعض الحبوب. الكيمياء مفيدة حقًّا، يسرت حياتنا كثيرًا.

أستلق على ظهري، تقبلني إيفا بحب وتقول: "حبيبي نزار هل تحبني حقًّا؟" أفكر قليلًا، أود أن أقول نعم بالطبع، يخونني لساني، ينطق رغمًا عني، أقول: "في الحقيقة، أنا فقط أجدك مثيرة".

تنظر لي بعتابٍ وتنهض، تقف على حافة السرير، موسيقى هادئة تأتي للمشهد فجأة، تبدأ إيفا الغناء ملوحةً بذراعيها، أغنية أعرفها، سمعتها من قبل، لا أذكر أين، لكنى أفهم معناها

على الرغم من فرنسيتها، لكن هذا ليس صوت إيفا، إيفا فقط تحرك شفتيها مع الأغنية، تردد مرة أخرى.

Tous les garçons et les filles de mon âge
Se promènent dans la rue deux par deux
Tous les garçons et les filles de mon âge
Savent bien ce que c'est qu'être heureux
Et les yeux dans les yeux، et la main dans la main

Ils s'en vont amoureux sans peur du lendemain
Oui mais moi، je vais seule par les rues، l›âme en peine
Oui mais moi، je vais seule، car personne ne m›aime

أغنية tous les garcons أفهم معناها جيدًا، كل الولاد والبنات في مثل عمري، يسيرون ممسكي يدي بعضهم البعض ويقعون في الحب بسهولة، وأنا وحدي، أسير وحدي، لا أحد يحبني. أتعجب من غناء إيفا تلك الأغنية، كيف لا أحد يحبها؟ أتركها وسط موسيقاها، أذهب للغرفة الثانية، غرفة صوفي

الجميلة، تستلقي في سلام، قميص شفاف أسود، قصير، قصير جدًّا، أتأمل ملامحها الهادئة الجميلة، كل تفاصيل ملامحها تجذبني، قلبي يخفق بعنفٍ، أشعر وكأنني أمام حبيبتي. لا أرغب أن أشوه صورة ذلك الجمال بمنْي.

أمام السرير، منضدة متوسطة وضع فوقها عدة شموع مضاءة، وعدة أطباق تتلون بأطعمةٍ مختلفةٍ، كمياتٍ صغيرةٍ جدًّا، وأنا جائع، أدركتُ ذلك عندما وقع نظري على الطعام، أمسكتني صوفي من يدي وأجلستني جوارها، أطعمتني بأصابع مرمرية، وبين كل رفعة يد لفمي قبلة، تطبعها على خدي. تنظر لي بحب لم أعهده. أقطع الصمت بكلمة "أحبك". نغرق بعدها في قبلةٍ طويلةٍ، تعقبها لمساتٌ حانيةٌ، تزداد الشهوة، يندمج جسدانا، تنطلق الرعشة، يحتوينا الحضن، يمتد الحضن، أود البقاء هكذا لنهاية العمر.

الوقت يمر. شيء بداخلي يقول إن الوقت ينفد، أودعها بقُبلة، أتوجه للغرفة الثالثة، غرفة أودري الطريفة، أجدها بانتظاري بشعرها الأسود القصير، تجذبني من باب الغرفة في مرح، نجلس معًا على السرير، نتحدث كثيرًا، في كل شيء، أفرد أمامها أوراقي، تقرأني بيُسر، تجتذب الكلمات مني دون عناء. أرتاح جدًّا في الحديث مع أودري، تُعاود الموسيقى بالظهور، هذه المرة بأغنية la vie en rose ، "هل هذه أديث بياف؟" أسأل أنا.

نعم يا عزيزي، إنها تغني هنا بالفندق بعض الأيام.

- "ألم تمت؟"
تنظر لي أودري بدهشةٍ قائلةً بشفقةٍ: نزار عزيزي، أديث بياف لا تموت. أهز رأسي إيماءً، تجذبني أودري للرقص، نرقص بمرح، أضحك بشدة، لم أكن سعيدًا هكذا من قبل، أرقص حتى أكاد أسقط من التعب، أشكر أودري صديقتي وأغادر، الوقت ينفد، صوت بداخلي يخبرني بذلك بإلحاح.
أقفُ في نهاية الممر، أتقدم نحو الغرف الخاوية، خمنت أنها خاوية لعدم وجود لافتات أسماء، أتقدم تجاه الأولى، أتعجب من تلك اللافتة الذهبية، أقرأ الاسم جيدًا، سلمى وطارق، ينقبض قلبي، وترتعش أطرافي، هل ما أفكر فيه هو ما خلف هذا الباب؟ هل ذلك كابوس سلمى وطارق الذي طالما راودني؟ ولماذا يأتيني هنا؟ وسط حلمي الجميل؟ أقتحم الغرفة سريعًا، أجد ما توقعته، سلمى وطارق عاريان في أحضان بعضهما البعض.
أغادر والألم يفتت قلبي، كمطرقةٍ حديديةٍ تطرقه بعنفٍ، لا أعلم ما الذي جاء بذلك الحلم- الكابوس- إلى حلمي، بالتأكيد أنا لم أفكر فيه ولم أقرر أن أراه.
أرجع مرة أخرى لحجرة أودري، تفتح بابتسامة عذبة، تتغير مع رؤية ملامحي، تحتضني بقوةٍ وتربت على ظهري، ندخل معًا، نجلس بجانب النافذة، أحكي لها ما رأيت، تواسيني بكلماتٍ عذبةٍ، تشعل لي سيجارًا فرنسيًا قائلة: هذا بالتأكيد سيغير مزاجك. بالفعل، مع أول نفس، اقتحم الدخان رأسي، احتل كل

جوانب عقلي، ونسيت، بسهولة، هكذا يتم الأمر هنا.
أنهض لأقف أمام النافذة، أشاهد باريس الجميلة من خلالها، السيارات ما زالت تسير بنفس الدقة والنظام، والمطر عاود غسيل الشوارع، والرؤوس الملونة تمرح تحته، العشاق لا يهمهم المطر، أستطيع تمييزهم من مكاني هنا، يسيرون بهدوء محتضنين بعضهما.
وتلك السيدة الأربعينية التي تركض هناك للاحتماء من قطرات المطر، أظنها وحيدة، لا صديق أو حبيب لها. أعرف ذلك من الطريقة التي تركض بها، تركض بسرعة وخوف، وكأن ما ينهمر عليها وابل رصاص وليس مطرًا، ترغب في الاحتماء بأي شيء يقيها المطر، أو البشر. تقف فوق الرصيف هناك، تنظر للمحبين بألمٍ، أتفهم مشاعرها تمامًا، وأشفق عليها، من ذلك العالم المتحجر. أن تحيا وحدك وسط كل تلك مليارات البشر، شيء صعب، ومؤلم.
أدير وجهي عنها قبل أن تتساقط دموعي. أمسح الرؤوس بأعيني، تثبتت عيناي بين منتصف المارة، فتاة تقف وحيدة تنظر تجاهي، ذات شعر أسود حريري، أشعر وكأن يدًا باردةً تعتصرُ قلبي بقوة، أقف متسمرًا بمكاني. نفس الفتاة التي رأيتها من قبل بالقطار، لا أصدق عينيَّ الآن، أربع سنوات مرّت على ذلك اليوم. تتسرب تفاصيله من ذاكرتي لعقلي بهدوء، يتبدل الجو الممطر بجوٍّ مشمسٍ صحو، وتتبدل الشوارع بمحطة القطار

بمصر، أراني أركض للحاق بالقطار المتجه إلى الإسكندرية، ألحق به قبل ميعادي بدقائق، أجلس وتلك الفتاة أمامي، شَعرها الأسود الحريري يتدلى على كتفيْن ناعميْن، عيناها كبحرٍ مُعتمٍ غريقٍ، كلما تُحاول أن تسبح بعيدًا عنه، تغرق فيه. بياضُ وجهها مشرق، وتلك الغمازات على وجنتيها، مع كل ابتسامة، كطعم الصيد، يصيدان كل من يمر أمامها. ويجب أن أعترف أنني غرقت في الحب ذلك اليوم.

طوال رحلة القطار لم ألتفت بوجهي عنها، وهي لاحظت ذلك، وكانت تبتسم كلما رأتني أنظر لها، ولولا وجود هؤلاء الناس بجانبنا لاعترفت لها على الفور وحادثتها. قررتُ أنه ما أن نصل إلى الإسكندرية، سأوقفها وأبوح لها بمشاعري.

وصلنا سريعًا على غير المرغوب. نزلنا معًا، الزحام شديد، والناس المنتظرة يحتلون كل ركن بالمحطة.

رنَّ هاتفي، خالتي تخبرني أن خالي توفي، صعقني الخبر، توقفت قليلًا وأسألها مجددًا: ماذا تقولين؟ جاءتني الكلمات السابقة نفسها بوضوح أكثر مع علو صوت المتحدث. غمرني الحزن، نظرتُ حولي، اختفت الفتاة، ركضت أبحثُ عنها، الزحام شديدٌ جدًّا، لا موضع لقدم، ولا أثر للفتاة، بحثت في كل مكان، ركضتُ سريعًا لأقف على باب الخروج، حتى لو تاهت في الزحام فقد سبقتها قبل الخروج، وبالتأكيد سأراها، أو هذا ما ظننتُ، تذكرت أن هناك أكثر من باب للخروج، ضربتُ رأسي بكفي

على غبائي، تاهت الفتاة مني، ولا سبيل لاسترجاعها.

كنتُ حزينًا جدًا ذلك اليوم، ظن الكثيرون أنه بسبب وفاة خالي، لكني كنت حزينًا أكثر لضياع الفتاة، وكنت أعجب من ذلك، كيف أحزن لضياع فتاة لم تتعد رؤيتي لها مجرد ساعاتٍ أكثر من فقدان خالي.

خالي كان رجلًا طيب القلب وأحببته كثيرًا، لكني أحببتُ تلك الفتاة أكثر، قلبي يقول ذلك، وعقلي أيضًا.

عقلي قالها عندما أتى بها إلى أحلامي مرارًا، وكأنه يرفض التصديق أنها ضاعت، حاولتُ إقناعه بنسيانها، فتذكرها لن يأتي إلا بألم، اقتنع أخيرًا، وقلبي رفض، وها هي ذي الآن تقف أمامي، الدهشة ألجمتني، ولكني لن أضيّعها مرة أخرى، أقسم بذلك، أتخلص أخيرًا من الدهشة، وأعدو بسرعةٍ لخارج الفندق، أرى الفتاة تركض أيضًا، أزيد من سرعتي، أنادي عليها أن تتوقف، تركض هي بسرعةٍ أكثر، تنحرف جانبًا بشارع ضيق، أنحرف وراءها، اختفت، الشارع طويل وخاوٍ، أركض لنهايته ولا أجدها، يصيبني الغيظ والحنق، أضرب الحائط بيدي بشدة، أتذكر كلمات دكتور فريد ، أن ما أريده هو ما سأراه، أقرر أنني أريد أن أراها مرة أخرى، لا شيء يحدث، أقف في منتصف الشارع وأصرخ، أريد أن أراها مرة أخرى، لا شيء، أتابع الصراخ بشدةٍ، تختفي الشوارع، تختفي المباني، كل شيء يتحوّل إلى الأسود.

أجثو على ركبتي، أكرر بلهجةٍ أقرب للبكاء، أريد أن أراها مرة أخرى، وأستيقظ...

أستيقظ فجأةً دون مقدمات، أرتد للواقع، تمر لحظاتٌ قبل أن أستوعب، أجدني ما زلت جالسًا على الأريكة وأمامي المنضدة، يتناثر فوقها بقايا المادة، أنظر في الساعة، السابعة صباحًا.

أثر المادة عالقٌ في رأسي، رحلةٌ سحريةٌ ممتعةٌ، وموجعةٌ. أعجب من الجزء الأخير في الرحلة، وكأن عقلي تعمَّد أن يُفسد الرحلة، ومن المفترض أن تلك المادة تُسبب لي البهجة فقط. هذا ما قاله لي فريد، يجب أن أحدثه، يجب أن أفهم أكثر ما حدث لي، ولكنها السابعة صباحًا، الوقت ما زال مبكرًا جدًّا، ومن الجيد أنني اليوم إجازة.

أشعر بالإرهاق والخمول، وفقرات ظهري تصرخُ من الألم، تعاقبني على ما فعلته بها ليلة أمس، لم يكن الأمر بيدي صدِّقوني.

خطايا هذه الليلة ما زالت عالقة بي. أشعر بها. لم تختفِ مع المشهد فور صحوي، كل الأمور اختفت، إلا تلك الرائحة التي تصلني من أسفل، بل روائح مختلطة، مطر، عطر فرنسي، وورود مجففة، ومنِي مُتحجر، وأحذية جلدية مبللة، وسيدة تحمل قلبًا وحيدًا، لكن رائحة المنِي المتحجر أشدها.

أدع الماء الدافئ ينساب فوق جسدي ليطهرني، يغمر الجسد كله،

أعبر رحلة التطهر للتأمل بقاربٍ قديمٍ، أسبح بين ثنايا أفكاري بشك. رحلة أمس عجيبة، تحتاج للكثير من التفاسير، وتلك المادة مُدهشة بحق، أرسو بقاربي على ضفاف أريكة الصالة، ألتقط الهاتف وأعبث به، تنير الشاشة بسرعة باسم د. فريد، أتمنى أن يكون مستيقظًا في ذلك الوقت.

تمرُّ لحظاتٌ قبل أن يأتيني صوتٌ خاملٌ هادئٌ يقول: "كنتُ أعلم أنك ستتصل بي خلال هذه الأيام، لكني لم أتوقع أن يكون مبكرًا هكذا".

أنهض وأدور في الغرفة، أجيب بتشوش:

- لا أعرف حقًّا، مادة غريبة، أعترف أنني لم أمرَّ بتجربةٍ مثيرةٍ كتلك من قبل، وأيضًا لم أستيقظ سعيدًا هكذا من قبل، على الرغم من بعض الألم والخنق، فإن هذا أفضل شيء حدث لي.

أتاني الصوت وقد بدا أكثر يقظة قائلًا:

- لمَ الألم والخنق؟ احك لي ما حدث معك، ولكن دعني أولًا أحضر ورقة وقلمًا للتدوين، أحب أن أسجل التفاصيل، ربما ترشدنا إلى شيء ما.

لحظاتٌ وعاد الصوت يقول: أوكي ، تكلم!

- حسنًا، كل شيء كان جميلًا، كان يسير بسلاسةٍ وهدوءٍ، كل شيء حولي تشكل لتحقيق رغبتي كما تمنيتها، إلا بعض التفاصيل المُزعجة اقتحمت حُلمي فجأةً بشراسةٍ، كابوس قديم كان يُطاردني، يجمع زوجتي السابقة بزميلي في العمل، رأيته في

حُلمي، مما سبَّب لي ألمًا.
أيضًا كانت هناك فتاة، أعجبت بها بشدةٍ من قبل، لم تتسن لي الفرصة للبوْح لها، وضاعت مني للأبد، وجدتها في حُلمي وحاولتُ اللحاق بها لم أستطع، تذكرتُ كلماتك، وقفتُ وصرختُ بأنني أريد تلك الفتاة.
لم يتحقق شيء...
أيضًا هناك بعض التفاصيل الغريبة، جميلة لكن غريبة، لوحات لم أرها من قبل أجدني أعرف اسمها، أغانٍ أيضًا، لا أدري كيف أعرف كل هذا، لكنه كان حُلمًا جميلًا جدًّا، قل لي ما تفسير تلك الأشياء؟
جاء رد الطبيب سريعًا كمن اعتاد تلك الأسئلة:
- أوكي، طبيعي، عقلك يستقبل مادة غريبة عليه لأول مرة، بالطبع سيُحاول مقاومة تأثيرها، سيُحاول ذلك عن طريق فرض سيطرته بذكرياتٍ قديمةٍ، بعض الصور العشوائية التي مرَّت عليك، فاهم؟ اسمع، العقلُ مُقاتلٌ عنيدٌ، مهمته حمايتك، فلذلك أي مادة غريبة تقترب منه يتحفز وينهض لمقاومتها، لكن مع التكرار ستتعلم وحدك كيفية السيطرة عليه، لا تقلق!
لا أتوقف عن الطواف في الصالة. التفكير وأنا أتجوَّل أسهل، يجعلني أعرف ما أريد قوله، والآن برأسي عشرات الأسئلة، لكن الأهم بينها هو الآتي:

- حسنًا، الآن أريد أن أرى تلك الفتاة مرة أخرى، ما المفترض أن أفعله؟ لا أريد بأحلامي الآن سواها، ضاعت مني من قبل، لا أريد ضياعها مرة أخرى، حتى لو بأحلامي.

- لا شيء محدد، يعني ..صفِّ ذهنك اليوم، أشغل عقلك بتفاصيل ذكرياتك مع تلك الفتاة، وستتمكن من حلمك إن شاء الله، الأمر ليس صعبًا، سترى بنفسك .

أنهي المكالمة وخيوط الفرح تتدلى من السقف لقلبي، تصعد وتهبط فيقفز قلبي فرحًا، أشعر به يكاد يخرق صدري من القفز، أحاول تهدئته، يُعاندني، أتركه لفرحه وأجذب عقلي بعيدًا عن تلك الخيوط.

أفكر، حياتي لن تعود كما كانت من قبل، هذا أمرٌ واضحٌ جلي، أنا الآن عند نقطةٍ فارقةٍ بحياتي، البعض يحيا دون أن يتوقف عند تلك النقط، يعبرها دون أن يدري، وأنا أدري، وذلك يجعلني فى مركزٍ مهم.

منذ حياتي الأولى وأنا أدرك، أنني لم أولد لأصير ذلك الترس، كنت أدرك أن ذلك الترس سيخرج عن مساره قريبًا، فقط كنت أنتظر اللحظة، ذلك المسحوق الأبيض هو اللحظة.

الليلة سأصنع عالمي الحي، سأصفي واقعي من القذارة، سأخلق عالمًا جميلًا، عالمًا آخر، عالمًا موازيًا.

***

الذنوبُ لا تُمحى بالنسيان، أو بالتجاهل. وهنا، غفران ذنبي صعب، والتمادي فيه غير مسموح، ماذا أفعل بنفسي؟ أنا أتحول رويدًا- ودون أن أشعر- لعاهرة. في الصباح مع رجل، وفي المساء أركضُ للارتماء في أحضان رجل آخر، أخون أحمد مع مطاردي الوسيم. في خيالي أعرف هذا، لكنه خيالٌ حي، أكثر من الواقع، أشعرُ بدقات قلبي، دفء لمسات الأيادي، نشوة تلامس الشفاة، أشعر بها على جلدي.

أحيانًا أشعر بأن خيالي هو عالمي الحقيقي، وبأن التي من المفترض أنها حياتي اليقظة الآن هي حياتي اللاواعية، وكيف يمكن للخيال أن يكون حيًّا هكذا أكثر من الواقع؟

أجول بنظري حولي لأتأكد، كل ما أراه الآن في هذا المقهى جامدٌ، وجوه عابسة تنظر للفراغ من خلال الحاجز الزجاجي، مجموعة شباب يجلسون في صمتٍ وكل منهم يُداعب هاتفه. فتاة عشرينية وحيدة تهمس لفنجان قهوتها بين الحين والآخر. شاب وفتاة، الفتاة تنظر لعينيه بحب، وهو ينظر لصدرها بشهوة. وأنا، أجلس وحيدة أسبح بين رغوات النسكافيه بشفاهي، أنتظر أحمد. المسكين لا يعلم ما ينتظره مني، سأبوح له بكل شيء، يجب أن أزيح ذلك الثقل. عاتقي لم يعد يحتمل. أعرفُ مسبقًا رد فعله، سيظن أنني مجنونة، بالطبع سيظن ذلك. أقدر موقفه، أي شخص عاقل بمكانه يجب أن يظن ذلك، عمر أيضًا يظن

ذلك، أنا نفسي اقتربت من ذلك الظن، يفصلني عنه شعرة، سأقتلع تلك الشعرة قريبًا جدًّا.

يجب أن أشاهد ذلك الفيلم، قبل أن أذهب لعمر، شاهدته مرة، لكن يجب أن أراه بعيني أيضًا، كما أرى أحمد الآن يدلف مبتسمًا إلى الكافيه، قادمًا نحوي يحمل باقة من الزهور الملونة.

هل اليوم عيد الحب؟ عيد الحب مرَّ منذ شهر، أنت لم تحمل لي الزهور يومها، فلماذا الآن؟

- "كل سنة وأنتي طيبة يا حياتي".
- "بمناسبة إيه يا أحمد؟".
- "النهارده ذكرى خطوبتنا، مرَّت سنة".
- "مرَّت بسرعة جدًّا". أُجيب بضيقٍ، أحمد يُصعب الأمور أكثر، أشعر بالتقصير.
- "اجلس يا أحمد من فضلك، أريد أن أبوح لك بأمر".
- "ما الأمر يا حبيبتي، اراكي حزينة، انتي بخير؟"
- "الأمر غريب يا أحمد، ربما لن تصدقني، أو ستظنني أهذي أو أخدعك، لكن ما سأقوله هو الحقيقة فقط، لا شيء غيرها... من أين أبدأ؟ حسنًا من البداية.

ثم أخبرت احمد كل شيء، عن الأحلام والوسيم، وعن أن الأمرُ يرعبني.. وأن ما يُرعبني أكثر، مشاعري، أشعر أنني أخونه. وأني أنجذب بدون إرادتي لذلك الشاب. أشعر كل يوم أحلم به

أنه يقربني منه ويُبعدني عنه. كل ليلة أحلم به. بعض الأحلام تتكرر، ولكني أستيقظ سعيدةً جدًّا، سعيدةً ومذنبةً، أشعر بالذنب تجاهه، لأنني أخونه، ولأن قلبي يسعد مع أحد غيره. نظراتُ عينيْه الزائغة وانعقاد حاجبيه كانا يكشفان عما يدور بخلده، يظن أنني مجنونة. حسنًا. أنا أيضًا أظن ذلك. أخبرته ايضا عن طبيبي النفسي، وأنه قال لي إن كل هذه تخيلات لا أساس لها من الحقيقة، وإن عقلي الباطن هو ما سيُصور تلك الأحلام، لأنني أفتقد تلك المشاعر معه، فيحاول أن يعوضها بأحلامي.

- .... ريم، حبيبتي، طبعًا يجرحني جدًّا إن أشوف قلبك سعيدًا مع غيري، انا حزين جدًا، لأنني فشلتُ في إسعادك. عارف أنني مُقصر معكِ، ممكن العمل، والمعرض الذي أخطط له يلتهمان كل وقتي، انتي عارفة. لكن أعدك أنني سأعوضك. أنا متفقٌ مع طبيبك، التقصير من ناحيتي أنا، لم أوليك كل الاهتمام اللازم. أنا آسف يا حبيبتي، وقريبًا لن يكون احلام من تلك النوعية، لن تجدي غيري بأحلامك.

- بجد؟ تقدر فعلًا تغزو أحلامي؟ أتمنى فعلًا يا أحمد، لا تعرف كيف هو شعور التعايش مع الذنب، أنا أتحوَّل لامرأةٍ لا أعرفها، المشكلة تكمنُ في أنني لا سيطرة لي عليها، أتعلم كيف هو شعور أن تكون مُقيدًا وهناك من يلهو بعقلك؟ يحركه يمينًا ويسارًا براحته؟ أنا أشعر بذلك، أن هناك من يلهو بعقلي، لم يفلح حتى علاج الطبيب عمر في كبح تلك الصور والأحلام.

أحمد، بداخلي صوت ضعيف يهمس دائمًا، أنني لا أريد أن أكون سعيدة سوى معك، فتمسك بذلك الصوت من فضلك!

- لا تقلقي يا حلوتي، لا تقلقي.. اسمعي.. أتحبين أن نتمشى قليلًا؟

- لا، هناك فيلم أود أن أشاهده بالسينما، ما رأيك ندخله معًا؟

الجو وكأنه صيف اليوم. صبغت الشمس كل شيء حولي للأصفر، مع بعض ذرات التراب الجميلة، تخترق الصدر لتلتصق بجدرانه، مسببة السعال الحاد. أرفع زجاج سيارة أحمد وأنا أسعل، وعيناي يُطالعان بوستر ذلك الفيلم.

عقلي يتحفز، المسافة بين أجفاني أخذت في الاتساع بعد مرور عشرات الدقائق في الفيلم. شعورٌ مختلفٌ يُولد لديَّ مع كل مشهدٍ يمر. أحد المشاهد جفف الدماء بعروقي. الفيلم دراما رومانسي، لكنه مرعب، بالنسبة لي على الأقل، أكاد أسقط من الصدمة. يا رب، ارحمني من كل هذا.

***

د. عمر
صفحات مُقتطعة من مذكرات دكتور عمر
١٠ فبراير ٢٠١٦

لقد وقعت في الحب اليوم. بدون مقدماتٍ أو ترتيبٍ، كالسائر نائمًا هوى من الطابق الثالث عشر، أفلتت قدمي دون أن أجد ما أتشبث به. فسقط، لم أسقط وحدي، فؤادي وروحي وعقلي أيضًا معي. في رحلتي للسقوط، وجدتهم يتسابقون أمامي، لكنه سقوطٌ ممتعٌ غير مميتٍ، يزيد من سرعة ضربات القلب، يضخ دماءً جديدةً للروح، فيمنحها حياةً أخرى، تمامًا كقُبلة الحياة.

تم تقبيل روحي اليوم، فنهضتُ بعد سُباتٍ مُقدسٍ، أُقحمت نفسي فيه إجبارًا، والقيود الحديدية- التي غلغلت روحي وقلبي بهما زمنًا- ذابت كلها اليوم، بسهولةٍ ودون عناء.
ريم حطمت قوانيني، حرَّرت روحي، كملاكٍ حبيسٍ انطلق يشق السماء بعد فك قيوده. فككتُ شفرات قلبي، فأصبحت هي مالكته الوحيدة، كل ذلك حدث من نظرة، نظرة واحدة، أدركتُ بعدها، أنني في ورطة، وأنه لا سبيل لي للخلاص من تلك الأعين، إلى يوم الدين، لن يهوى القلب سواها، أدركتُ ذلك كله اليوم.
ريم.... يا إلهي، ذات الوجه الملائكي ماذا أقول فيها؟ هل من المفترض أن أحكي عن عينين هما جنتان؟ فردوس الله في

الأرض، محرابان للصلاة، قِبلة للشعراء، وما أنا بشاعر، ولكن صلوات حبي كلها لكِ يا ريم.

ماذا فعلتِ بي؟ كيف زلزلتِ وجودي هكذا؟ يا رب الكون، ما أبدعك، سبحانك على جمال خلقك.

للحب لغة، وللجمال لغة، امتزجا اليوم معي، فأصبحت أتكلم لغة هي أهلها، ثغرها كبحريْ عسل أبيض يلتقيان كلما تحدثت، قدُّها رائع وبديع.

لم أدرِ كيف لحاملة تلك الملامح أن تحمل همومًا، أو لها شكوى، ولماذا جاءت بالأصل لي اليوم؟

منذ أن دلفت حجرتي تعجبتُ، هل لهذا الجمال أن يحمل همومًا، ولكني في قرارة نفسي سعدتُ، لأنه سيكون بإمكاني مساعدتها، سأزيح عنها همومها، وأعالج ثغرات روحها، أقسمتُ بذلك في بداية اليوم، ولا أعلم هل سيخالف هذا القسم قسمي الطبي؟ علاج المُحب أشقى، هذا عزائي. لم أطلب منها أن تحكي مشكلتها، أردتها أن تحكي عن نفسها وعن تاريخها منذ الصغر.

المسكينة قاست كثيرًا بالحياة، توالت الصدمات عليها، لم ترحم صغرها، ولم تبال ببراءتها، انتزعت الحياة سنديها، ألقت بمجدافيْ قارب حياتها بعرض البحر، وذلك بالتأكيد سبَّب لها صدمةً شديدةً، أثرت على باقي قرارات حياتها.

فقدان الأب أو الأم وحدهما منذ الصغر يُؤثر على الطفل، أما

فقدهما معًا مرةً واحدةً فيسبب صدمة، وربما كارثة نفسية، لا تختمر إلا بالكبر.

لم يتوقف الأمرُ عند هذا الحد، بعد أن وجدت الحب وانجرفت إليه بكل مشاعرها المكبوتة، تستجدي تعويض الحنان والحب المفقودين، حطم حبيبها كل هذا في ثانيةٍ بخيانته. ولا أعلم حقًّا أي معتوه يُمكنه أن يخون هذا الجمال؟

لكنه حطمه بأي حال، وهذا بالتأكيد هزَّ- بل وربما دمَّر- صورة الحب أمامها، وكسر روحها، وأفقدها الثقة في الرجال، صدمات كتلك لفتاةٍ في رقتها، كفيلة لتحولها لمريضةٍ نفسيًّا، وعليَّ أنا أن أعالج تلك الشروخ بروحها، وأصلح الكسور بقلبها، وأعيد لها نفسها. عليَّ أن أفعل كل ذلك بمهنية طبيب نفسي، ولكن قلبي يقول إن ما تحتاجه هو قلبٌ آخر يشعر بها، وليس نظريات.

قلبي يريد أن يُحلل له هذا الحب، يريد تسكين ضميرى، هل من المفترض أن أكتب لها الأدوية وأغرقها بالتحليلات النفسية أم أن أقول علاجك هو حضن نمزج به روحينا، نحرق هموم أنفسنا بين لهيبه؟ لا أدري، ولكني أكاد أقسم، أن قلبي توقف حين بكت، لم أحتمل تلك الدموع، كم أردتُ أن أضمها إلى صدري، أملس بيدي على شَعرها الحريري، وأربت على كتفها

برقة، أجفف دموع وجنتيها بطرف أناملي، أردتُ كل هذا، ولكن كل ما فعلته، أنهيت الجلسة.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٤

سمعت أن «سالم» جُنَّ لمَّا هرب منه «هرقل»، وأنه فقد هيبته أمام شخصياته، حتى إن أحدهم، ويُدعى «حامد»، قفز على حين غفلة من «سالم»، عندما ذهب ليتبوّل، وتمشّى على سطح المكتب، وقرأ بالصدفة «حامد» ملخص الرواية، وعرف مصير عائلته الدموي المحتوم، وأنه سيقتل أخته «فاطمة» بيده، حينها عرف أنهم وقعوا ضحية لكاتب مجنون، مهووس بالدم والجنس. فرجع «سالم» للرواية، وجمع أهل القرية، وأخبرهم بمصيرهم الدموي، وقرروا التمرُّد على الكاتب وتغيير أقدارهم. هاها، مسكين «سالم» المجنون، لن ينتهي أبدًا من رواية. حتى إن «سالم» بعدما يئس تمامًا في السيطرة على شخصيات القرية، مزّق المخطوطة بيده، وجلس يبكي ويسكر ويردد: أنا فاشل.. أنا فاشل.

نرجع لـ«أرض الكراميل»، فعلًا يا «نزار»؟ لم تفهم ما حدث لك؟ ولا كل اللوحات ولا النساء اللاتي

قابلتهن؟ لماذا أنا افهم إذًا؟ آه، «فرويد» العبقري مرة أخرى. يا «نزار» أنت وحيد، تبحث عن الحب، لوحة عازف الغيتار العجوز تمثّل لك الوحدة، ولوحة الصياد والحورية تمثّل الحب، قرأت عنهما أنت من قبل ولكنك تنسى. «إيفا» هي الجنس، و«صوفيا» هي الحب، و«أودري» هي الصداقة، عقلك الباطن يا «نزار» افهم. ولكن أنا لا أفهم، من هذه الفتاة التي رأيتها في القطار؟ تتصرف على كيفك؟ ها؟ تظنني «سالم»؟ أنا الذي أخفيتها لمّا رأيتك تتصرف بمزاجك، عمومًا، ما دمت تريدها هكذا لن أحرمك منها، الصبر يا صديقي.

وأنت يا «عمر»، تكتب مذكراتك الآن؟ ها؟ تقلّدني يا معتوه؟ مذكرات وحب وهيام وشعر؟ وما هذا الشعر كله؟ تظن نفسك أمل دنقل؟ ها؟ تحب «ريم» أم تريدها في سريرك يا ملعون؟ طيب، سأعذبك طيلة الرواية، ولن تحصل على قبلة، هاها.

نزار

كعادتي، وصلتُ المحطة متأخرًا، ولا أعلم هنا هل لأنني أويت للفراش متأخرًا ليلة أمس، أم أنها أصبحت عادة تُلازمني حتى بمنامي؟ وقفت تائهًا وسط الزحام. نظرات الشك حولي ثقبت روحي، الكل يرميني بها، وكأنهم يتساءلون هل هذا الشخص الأخرق هو خالقهم؟ ما الفرق بينه وبيننا ليمتلك تلك القدرة الإلهية دوننا؟ قرأت أفكارهم، ولم أبال. ابتسمت في زهو، حتى اقترب رجل زاحفًا، يبدو أن ساقيه بُترتا لسببٍ ما، اقترب الرجل وهو يشير إلى ساقيه، ناظرًا إليَّ بحنق وغيظ. وددت أن أقول له، لا ذنب لي في هذا، لا أعلم لم عقلي جعلك كسيحًا. قطع كل ذلك طيفها الآتي من بعيد، خطفني النور، وارتعش الجسد، أبطأ الزمن حركته، اقتربت بيسان، وكانت كلما اقتربت، خف الزحام حولنا، واختفت الناس، حتى فصل بيننا مترٌ واحدٌ، نظرتُ حولي، لا أحد سوانا بالمحطة، اقتربتُ أكثر، قالت: لقد تأخرت كثيرًا.

ليلة أمس كانت مثيرةً، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. في البداية، قررتُ أن أنفذ كل ما قاله فريد لي. اعتذرت عن مواعيد أمس، عميل البنك، ودكتور الأسنان. طوال البارحة لم أفكر سوى في فتاة القطار. شغلت نفسي بذكرى ذلك اليوم، أتذكر ملامحها الجميلة، وأدعو في سري أن أراها بأحلامي مرة أخرى. حتى المساء، استلقيتُ على الفراش متأخرًا، حتى أكون

تشبعت بتفاصيلها. عطرها، عينيها، وصدى صوتها. كل تلك التفاصيل الصغيرة لم أنسها، حضرت بسهولةٍ بمجرد أن جالت بخاطري صورتها. فتحت كيس المسحوق الأبيض، أفرغته على لوح زجاجي صغير، وسحبتُ.

- تأخرت كثيرًا.

- عارف. انا بحثت عنك كثيرًا، ركضت كالمجنون بالشوارع، أبحث بين آلاف الوجوه، لم أجدك.

- لا، لم تبحث جيدًا، وضيعت فرصتك بالقطار، لَمَ لمْ تكلمني طوال الرحلة؟

- خطئي. عارف، وهذا ما أحاول أن أصلحه الآن.

- لا يهم، المهم الآن نحن معًا، لا تحاول أن تضيعني مرةً أخرى.

- مرة أخرى؟ انا مجنون؟ لن يحدث، أقسم لكِ، لن أدعك تضيعين أبدًا، هذا وعد.

استحضار فتاة القطار مرة أخرى، نجحت المادة في ذلك، وكذلك أنا، في السيطرة أكثر على الحلم، ولكن ليس كليًا. هناك أمورٌ ظهرت، رغمًا عني، ودون رغبةٍ مني، لكنها لم تكن ذات تأثيرٍ يُذكر. خلق الأحلام مُثيرٌ، لا أظن أن هناك شيئًا من الممكن أن يُسبب السعادة أكثر مما أنا أمر به الآن.

دكتور فريد هذا عبقري فعلًا، يجب أن يحصل على نوبل.

تفاصيل ليلة أمس تُسعدني جدًا، أود أن أسردها مرة تلو المرة.

بعد ذلك الحوار القصير مع بيسان، ولا إراديًا، تسربت أناملي

لتحضن يدها، رأيتُ الخجل يطفو وجنتيها، ولكنها لم تسحب يدها، تمشينا حتى الشاطئ، تمشينا على رصيفه بمحاذاة الشاطئ، سألتها ما اسمك؟ بيسان، أجابت. ثم سألتني: وأنت؟ أنا حبيبك، وهذا يكفي. ولكن لو يهمك جدًّا فاسمي نزار. احتضنت يدها أكثر، ورفعتها لفمي ألثمها برقة، أدارت رأسها تجاه البحر خجلًا.

- اه لو كنت جئتي مبكرًا؟ كانت حياتي ستكون أحسن كثيرًا.
- فعلاً؟ ربما، لم يكن مقدرًا لنا هذا، طبعًا ليست كل رغباتنا توازي نوايا القدر، يتقاطعان أحيانًا، يتوازيان أخرى، أنت تعرف.
- آه، ولكن هذا كان فيما مضى، من اليوم سيتغير كل شيء.
- كيف؟
- سيسير كل شيء وفق رغبتنا نحن، نحن فقط.
- اتمنى هذا فعلًا.

قالتها ثم أراحت رأسها على كتفي، لففت يدي حولها، نسيت كل شيء حولي. أردتُ أن أضمها أكثر وأكثر إليَّ، قربت رأسها لصدرى، "أسمع دقات قلبك، يدق بسرعة" قالت لي. "لأنك بقربه يا بيسان، لم يحتمل، لو لدقات القلب لغة، لسمعتيه يهتف باسمك مع كل نبضة" قلت أنا. "أسمعه وأشعر به. أسمع، وأنا أيضًا قلبي يهتف باسمك الآن" قالت بيسان.

بيسان، تعالِي معي، أود أن أقول لكِ الكثير، هناك كافيه هادئ

على الجانب الآخر من الطريق، دعينا نذهب إليه، قلت أنا. توقفت فجأة أمامنا عربة ضخمة. عربة نظافة، هيئتها تشير إلى ذلك، ترجَّل منها عجوزٌ، ألقى علينا نظرةً سريعةً قبل أن يقترب ويقف أمامنا، ووجَّه نظره إليَّ متسائلًا: هل تصدق هؤلاء المجانين؟ هل تُصدق ما ينوون فعله؟ بدت ملامح الحيرة على وجهي وأنا أجيب: أي مجانين؟ وماذا سيفعلون؟ أجاب: هؤلاء المجانين بمجلس النواب، يريدون سن قانون بمضاعفة ساعات العمل الرسمية إلى ٦ ساعات، هل تصدق ذلك؟ ماذا سيتبقى في اليوم بعد ٦ ساعات عمل؟ يقولون التعويض المادي سيكون كبيرًا؟ ماذا سيفعل الشباب بالمال بعد سرقة عمرهم؟ تخيل! يدفعونك دفعًا لبيع عمرك، ثم يقولون لك خذ هذا المال، وحاول أن تتمتع به في قبرك. ابتسمتُ متحسرًا وأنا أجيب: مجانين بالفعل، لا أصدق ذلك.

تركنا الرجل، واجتزنا الطريق للكافيه، الكافيه كان هادئًا وجميلًا، موسيقى هادئة تنسابُ من الخلفية، مُسكرة للروح، مثيرة للشجن، تسحبك لعالم آخر. تلك الموسيقى مثلي، قادرة على خلق عوالم أخرى، شعرت بالغيرة، والتنافس، حين أدركتُ تلك الحقيقة. من مكانها ترسل مع نغماتها رسلًا خفية، تسحب رواد المكان، دون إرادة منهم، إلى عوالم أخرى، فتجلب لتلك المسكينة هناك ذكرى والدها، ولذلك الشاب التائه الحزين ذكرى حب قديم، كما فعلت معي، وجلبت ذكرى فتاة القطار،

وقبل أن أقع في ذلك الفخ، وقبل أن تضيع هيبتي كخالق عوالم أمام نغماتها، أدركتُ أنني بحضرة فتاة القطار بالفعل، وأن تلك الموسيقى جزء من عالمي أنا، ابتسمت مرتين معًا، سرًّا لذلك النصر الوهمي، وجليًّا، لبيسان، النور الذي أضاء عتمة روحي، فتشبعت روحي نورها، وسكنت أنفاسها كياني.

- بيسان، لو قلت إني أحبك، سأكون ظلمت روحي وقلبي معي، ما أشعر به الآن، شيء آخر يفوق الحب. لا أجد تعريفًا مناسبًا. ولكن قلبي يكاد أن يتوقف يا بيسان، كلما نظرت لكِ، تخبطت كل الوظائف بجسدي، أشعر بدمي يفور ويجري بكل أنحاء جسدي كالتائه، لا يعرف مستقرًّا. وقلبي، أيضًا، مع نظرتك، يرقص بعنفٍ، يريد شق صدري، ليقفز بين قدميك، ماذا فعلتِ بي يا قاتلتي؟

- قاتلة؟ هاها ..كلماتك تُسعدني فعلًا، ولكنها تُخجلني أكثر، أربكتني، ولكن، لن أخفي عليك، اممم أنا أيضًا أحبك. منذ أن رأيتك في القطار وأنا أعلم أنك الحلم الذي طالما راودني. كنت انتظرك كل يوم بعدها، حتى يأست من قدومك. أحبك فعلًا، فلا تتركني يا نزار!

- لن يحد.....

"أتعلم؟ كان هناك مرض قديمًا، اجتاح البشر، مرض غريب، حار البشر في علاجه، هدد البشرية كلها، ذلك المرض كان اسمه، على ما أذكر، الخوف"..

قطع أفكاري ذلك الصوت بتلك الكلمات، تلفت حولي، وجدتُ صاحب الصوت، رجلٌ أربعيني يجلس مع صديقه، في أقصى زاوية من الكافيه، ولا يمكن في الوضع الطبيعي والعادي أن أسمعهما، فلماذا اقتحما حديثي بتلك الطريقة الفجة؟ ولماذا الصوت يرن بأذني وكأنه يجلس بجانبي ويصرخ بها؟ حاولت أن أنفض عني تلك الأصوات، تلفتُّ لبيسان قائلًا:

- لن يحدث أبدًا يا حبيبتي.. لن أتخـ..

"ذلك الخوف، كان يجلب مشاعر الرعب للبشر، فتجدهم طوال الوقت، مرعوبين، مذعورين، من الساسة بالبلد، من المديرين بالعمل، من المستقبل، ومن الماضي أيضًا، من الحب والفراق، من المرض والموت، من الفقر والجوع، من العطش، من الدم، من الصوت المرتفع، من الرؤوس الضخمة، من مبنى البرلمان، من الجوامع والكنائس، من السير بالشوارع، ليلًا أو نهارًا. كل شيء كان يسبب لهم الرعب، أتصدق ذلك؟"

رجع ذلك الصوت يقتحم أفكاري ويشتتني، نظرت إليهما، كانت المسافة بعيدة بيننا، وعدة أشخاص جالسون يحتلون تلك المسافة ولا أسمع لهم صوتًا. حاولت أن أركز بعقلي، وأن أجعل هذين الشخصين يختفيان، فشلت، استأذنت من بيسان وذهبت إليهما مترجيًا:

- من فضلكما، هل بإمكانكما إخفاض صوتيكما قليلًا؟ صديقتي تجلس هناك، وهي لا تعلم أني أحلم. أنا أحاول أن أصارحها بحبي، لكن صوتكما يمنعني من ذلك؛ من فضلكما، الأمر مهم جدًّا بالنسبة لي.

- حسنًا، سنحاول إخفاض الصوت، لكن حاول أنت ألا تقفز بالكلمات إلى لساني، فأنا بالأساس، أبكم!

رد صاحبُ الصوت المزعج مبتسمًا، رده أزاد من غيظي وأحارني، ماذا يقصد بأبكم؟ تركته ورجعتُ لبيسان، وقبل أن أصل تلفت خلفي لأرى الرجل يتحدث مع صاحبه بلغة الإشارة، فظننت أنه قرر أن يستعمل تلك اللغة لكيلا يزعجني، جلستُ مرة أخرى أمام بيسان متأسفًا، قبل أن أقول بحب:

حبيبتي، لن أتخلى عنك أبدًا، من اليوم سنكون معًا، لن يفرقنا إلا..

"ذلك الخوف، كان يحركهم كالعرائس، الكل كان مريضًا بذلك، لا أعلم كيف عاش البشر في ذلك العصر بتلك المشاعر، كيف يمكن أن أحيا وبداخلي شعور مقيت، يُجبرني على فعل أشياء رغمًا عني، لأعيش حياة لا أريدها، أتصدق ذلك؟"

وهنا لم أتحمل أكثر، خطفت يد بيسان بسرعة وتركنا المكان، كانت الشمس قد بدأت رحلتها لاستكشاف مياه البحر، تاركة مكانها بالسماء لملايين النجوم الصغيرة، وبدأت البرودة الخفيفة تدبُّ بالأوصال، احتضنت يد بيسان أكثر لأبث

فيها الدفء، رفعت يدها الرقيقة إلى فمي ألثمها. يدها رقيقة كقطعة بسكويت، أعاملها برفقٍ شديدٍ، سألتني بخجل: إلي أين سنذهب؟ إلى الشاطئ يا حبيبتي، أجبت أنا. وصلنا للشاطئ، وكان خاليًا، فكان ملكنا وحدنا. جرينا فوق الرمال، ضحكنا، رقصنا، وبعد أن أجهدنا التعب، استلقينا على الرمال. ننظر للنجوم، احتضنا أيدي بعضنا، اقتربت منها، تلاهثت أنفاسنا بشكلٍ سريعٍ متقطعٍ، عانقتُ شفتيها الورديتين في قُبلةٍ طويلةٍ. همست: بحبك. أرحت رأسي مرة أخرى على الرمال، وقلبي يدق بعنف، مرَّت لحظاتٌ قبل ان تقول بيسان بفرح:

- انظر لتلك النجوم! انظر كيف تتلألأ اليوم، تلمع أكثر من أي يوم سبق! أعتقد أنها تحتفل بحبنا، إنها تشاركنا فرحتنا، أشعر بها، انظر وستفهم ما أعني!

أنظر للنجوم، أجدها تلمع كما تلمع كل يوم، لا جديد، فأقول:

- حبيبتي، لا أريد أن أصدمك، أو أسبب لكِ ألمًا، لكن هل تظنين حقًّا أن الكون يهمه أمرنا لهذا الحد؟ وأنه أرسل نجومه للاحتفال بنا؟ حبيبتي، الكون أناني. لا يهمه أحد. لا النجوم، ولا الشمس، ولا القمر، ولا البحر، لا شيء يكترث بنا، فنحن لا شيء.

- لكن انظر لتلك السلسلة من النجوم، أنا أتابع النجوم كل مساء وأقسم لك أنها لا تلمع هكذا كل يوم، الكون يشارك البشر أفراحه يا نزار، فنحن جزءٌ منه بأي حال.

- حبيبتي، إذا تركنا أنفسنا الآن لمياه البحر تُغرقنا، هل ستطفئ النجوم نورها حزنًا؟ هل ستبكي السماء على حبٍّ مات؟ لا، لن يحدث صدِّقيني، البشر أضعف من أن يُحركوا مشاعر الكون. وذلك أفضل أكيد، أن تظل مشاعر الكون صامتة.

- حسنًا، دعك من كل هذا ولا تفسد اليوم، دعنا نحيا تلك اللحظات الجميلة.

- بيسان، كنتُ أفكر في أمرٍ ما.

- ماذا يا حبيبي؟

- أريد أن.. أراكِ.

استيقظتُ مع آخر كلمات الحوار، والكلمات تتردد في ذهني، استيقظتُ والسعادة تغمرني، وقلبي فارقته الوحدة، الحب حقًّا شيء جميلٌ جدًّا، يمنح السعادة بدون مقابل، أخيرًا وجدتُ ضالتي، أحمد الله على هذه النعمة.

***

ريم

عقلي مُعتم، أشعرُ به غارقًا بالعتمة يلفه ضبابٌ كثيفٌ. وهذا يؤثر سلبًا على ذكرياتي، فلا يصلني منها الكثير، وما يحفظ منها، ينتهي عند آخر عشر سنوات. وكأنني وُلدت عند ذلك التاريخ، وأن حياتي السابقة كأنها تنتمي لشخص آخر، أو ربما عقل آخر. يصلني من الطفولة القليل جدًّا، والذي كونته من

أحاديث الجدة والخالة وبعض الصور، وما عدا ذلك، فلا شيء.
أحيانًا أشعر أنه عليَّ القراءة كثيرًا، وأنا أفعل ذلك بالفعل، أشعر أنه تقع عليَّ مسئولية تغذية ذلك العقل الخاوي، بالأحداث والذكريات والأبطال، وكلما قرأت أكثر، تبدد الضباب قليلًا حول عقلي، وترسخت الشخصيات والأحداث داخله. القراءة جميلة، تُتيح لي الإبحار بعوالم عدة، وأنا بمكاني. السينما أيضًا جميلة، لا أتخيل، العالم بدون سينما، كيف سيكون؟ الحقيقة الإجابة مرعبة، مرعبة بنفس قدر ما حدث لي، في آخر حُلم، والحقيقة أكثر ليس الحلم هو المرعب، بالعكس، الحلم كان جميلًا وبديعًا، ما حدث بعد ذلك هو الرعب كله، وهو ما لن يصدقه عمر اليوم، ولن يجد تفسيرًا، أثق في ذلك، فما حدث معي لا تفسير له، سوى أنني جننتُ، تمامًا.
- ما تفسير هذا برأيك يا عمر؟
- .. لا أعرف، الأمرُ غريبٌ فعلًا، تعدَّى نطاق الأحلام الطبيعية، هل أنتِ متأكدة مما حدث؟ ام ااا...
- متأكدة، مثلما نحن نجلس الآن نتحدث، ولهذا جئت لك بالتذاكر، تفضل!
- اه، انا أصدقك، لكني أحاول أن أجد تفسيرًا لذلك، حسنًا دعيني أعيد قراءة ما دوَّنته الآن، ربما نجد تفسيرًا بين السطور.. إمممم، من البداية. بعد يوم عمل مُرهق أويتِ للفراش مبكرًا، وذلك لم يتح لكِ مشاهدة أي أفلام هذا اليوم، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنًا.. كان الحلم طبيعيًا حتى ظهر الفتى الذي يُطاردك دائمًا، كنتِ سعيدة بظهوره واستمعتِ بوقتك معه، ثم ذهبتم للسينما وشاهدتم فيلمًا فرنسيًا اسمه love لم تكوني سمعت به من قبل أو شاهدتيه، وبعد استيقاظك وذهابك للسينما مع أحمد، فوجئت بالفيلم معروضًا وسط الأفلام، فقررتِ أن تقطعي الشكوك وتشاهديه مرة أخرى، وتفجرت شكوكك كلها وحيرتك عندما وجدت الفيلم يُعاد أمامك بنفس التفاصيل في الحلم، نفس التفاصيل والأحداث، أليس كذلك؟

- تمامًا، هذا هو ما حدث، وأصابني الرعب وقتها، وتقريبًا لا أنام، الموضوع تطوَّر، ولا أعرف ما المفترض أن أفعله يا عمر، أنا تائهة ومشوشة، سأجن.

- اهدئي يا ريم!.. لا تقلقي، سنجد تفسيرًا، العقل لغزٌ كبيرٌ، وقدرات العقل البشري لا محدودة، العلم سجَّل حالاتٍ كثيرةً تُعد من العجائب، ولم يجد لها تفسيرًا منطقيًا، ولكن.. دعينا لا نستبق الأمور ونذهب مباشرة لذلك الجزء. لا تقلقي يا ريم، أنا معكِ.

- معي؟ حقًا؟.. أشعر بأني قد سمعت أو قرأت كلماتك الأخيرة بمكانٍ ما.

***

صفحات مُقتطعة من مذكرات د. عمر
١٥ فبراير ٢٠١٦

أفضل كتاباتي وأنا محموم، أدرك ذلك جيدًا، ترتفع الحرارة وترتفع معها قيودُ كلماتي، فتندفع حُرة طليقة، تتراص على الورق في سرعة، فأهذي وأهذي، لا أحد يوقفني، وبعد حينٍ، أشفى، أعيد قراءة ما كتبت، فتتعرى نفسي أمامي، وتنكشف بواطنُ روحي، وما كنتُ أظنه هذيانًا، يصير كبد الحقيقة. كما أفعل الآن، وأنا أعيد قراءة ما كتبت عن ريم، لو كنتُ كتبتُ كما أنا الآن، لما ظهرت الكلمات بذلك الشكل، اللعنة على الحمى، والحب أيضًا، كيف الخلاص؟

جاهدًا، حاولتُ أن أخفي مشاعري تحت قناع الصمت، ارتديته فور دخولها اليوم، وبعد أن قصت مشكلتها، كان لا بد من الحديث، فأنا من المفترض أني معالجها وطبيبها. وأحمد الله أن مشكلتها بسيطة، لا تعاقيد أو تراكيب نفسية شديدة. التشخيص كان سهلًا وسريعًا. والعلاج سيكون سهلًا أيضًا. ريم تُعاني مشكلة بالأحلام، أو ليست مشكلة بالمعنى المفهوم، فهي تحلم طبيعيًّا، لكن طبيعة الأحلام هي المشكلة. تحلم بشخصٍ لم تلتق به من قبل، ترتاح معه كثيرًا، تذهب لأماكن لم تزرها، وعندما تعودُ للواقع، تذهب لنفس المكان، لتجده تمامًا مثل الحلم. ببساطة ريم تفتقد للحب والحنان، الصدمات التي تلقتها صغيرة، شكلت جزءًا كبيرًا من نفسيتها، فعقلها

الباطن يُحاول علاج ذلك الفقد، يُحاول تحقيق رغبةٍ ملحةٍ لشعورها بالحنان والأمان، فيخلق لها مثل تلك الأحلام. الأمرُ بسيط، أي طبيب نفسي سيكتشف ذلك من أول جلسة، وأما عن المكان، فأنا متأكد أنها مرَّت به من قبل، لكنها لا تتذكر، لأنه ليس شيئًا مهمًّا. ولكن، يجب أن أعترف، فلا أحد سيقرأ تلك الكلمات سواي، لذلك يجب أن أقر، ودون تدخل الحمى، أن الغيرة كادت تقتلني اليوم، حين شرعت في وصف الفتى الوسيم بأحلامها، وما زلت أشعر بها الآن. هل هذا طبيعي؟ أغير من شخصٍ وهمي اختلقته مريضة لنفسها؟ أم أن الحب يُحيل الكل لمرضى نفسيين، أيًّا كان، لقد قررتُ، أن أقضي على ذلك الشخص، بأحلامها أيضًا.

***

٢١ فبراير ٢٠١٦

لا أعلم لِمَ تجتاحني رغبة الكتابة فقط بعد رؤية ريم، يحضرني أساطير الأدب كل منهم بقلمه، أراهم يجلسون حولي، يمدحونني، فتزداد ثقتي، فتنساب الكلمات على الورق دون جهد أو عناء. ولأني وحيد، لا صديق أفضي همًّا، أو حبيب أبوح سرًّا، فأنا أكتب هنا إليكم، أو بمعنى آخر، أكتب لنفسي، فبالتأكيد، لا أحد مهتم بقراءة مذكرات طبيب نفسي نصف مشهور.

لكن الكتابة عن ريم تستحق، ريم تستحق أكثر من ذلك. أحبها وعيناي تفضحانني، لاحظت هي ذلك اليوم، أو أعتقد ذلك، توتري من المحتمل عزز لها ملاحظتها، ولكن الوضع غريب قليلًا. فهي الآن، بالنسبة لها بالطبع، في حياتها رجلان. خطيبها، وهذا واقع، لا سبيل لإنكاره. ومطارد أحلامها، وهذا خيالٌ لا وجود له، ولكني وحدي أدرك ذلك، فهي تعتقده واقعًا أيضًا. ودوري أنا أن أمحو لها هذا الخيال، وأردها للواقع سليمة، بدون أي مشاكل نفسية مصاحبة. حسنًا، إذا أردت إعادة ترتيب الموقف، حتى تظهر الصورة جلية، وواضحة، ريم لا تحب خطيبها، هذا أكيد تمامًا، لأنه ببساطة تلك الأحلام والصور الخيالية ناتجة لإحساسها بفقدان الحب والأمان، فبالتالي خطيبها لا تشعر معه بتلك المشاعر، هي أيضًا لا تدري ذلك، إذن، دوري أنا كطبيب نفسي، وليس كعاشق بالطبع، أن أزيل أوهام ريم، وأحاول دفعها أن تشبع رغبتها للحب والحنان لأرض الواقع، بعيدًا عن الخيال. ثانيًا، أن أدفع ريم لتحديد حقيقة مشاعرها من خطيبها، دون تدخل مني، واجبي المهني يقضي ذلك، عليَّ أن ألتزم بقسم المهنة، أن أطرح مشاعري جانبًا، وأفعل ما يمليه عليَّ ضميري فقط، أما عن عمر العاشق، فيسظهر بعد شفاء ريم، وهي وقتها مَن ستحدد، لا أنا.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٥

اعذروني يا قراء، أنا أتابع أخبار «سالم» المجنون لأني، قدريًا، مرتبط به: فهو من شكّلني وزجّ بي في عالم الكتب والروايات المتفسّخ هذا، آه سمعت هذه الأيام أنه يحاول كتابة قصة جديدة، عن نبي عارٍ، ظهر في جزيرة نائية، تحكمها عاهرة، عاهرة ذات صدر أبيض كبير، تسير كل يوم بالطرقات وتنادي بصوت ناعم: من يضاجعني وله الأجر؟ من يطؤني وله الثواب؟ وأن هذا النبي ظهر في صباح بارد، ظهر واقفًا وسط الجزيرة عاريًا، وبيده منجل حديدي. آه، قصة جميلة يا «سالم»، لكنها لن تكتمل، «حامد»، القروي الساذج، تمرّد عليك، وصفعك على مؤخّرتك يا معتوه، فما بالك بنبي يحمل منجلًا حديديًا؟ أنت تريد الموت يا «سالم»؟ نبي وكرامات وعلاقة جيدة مع الرب؟ يكفي أن يدعو عليك يا مجنون.

آخ، نسيت، دائمًا ما أنجرف في الحديث عن «سالم» المجنون وأنسى أبطالي، ها، ما رأيك يا «نزار»؟ عالم جديد ونظيف، تمرمغ فيه أنت

و«بيسان» الحلوة، آه، لكن يا صديقي عقلك الباطن لا يرحمك، الرأسمالية ترعبك وتسيطر على أفكارك، حتى أحلامك الحلوة لا تهنأ بها. كنت سأضع في يدك ساطورًا، وأجعلك تشق رؤوس هؤلاء المجانين في الكافيه، ولكن لم أُرِد أن أفسد الجو الرومانسي الشاعري للرواية، هاها، سيطِرْ على عقلك قليلًا يا أخي، لا نحتاج إلى تلك الفلسفات الفارغة في رواية حالمة كتلك.

وأنتِ يا «ريم»، كيف عقلكِ الآن؟ هاها، سأتلفه تمامًا، أرجوكِ، لا تأخذي الموضوع بشكل شخصي. ألستِ سعيدة؟ جميل؟ هذا يكفي.

وأنت يا «عمر»، تظن نفسك كاتبًا الآن؟ تكتب مذكرات وأساطير أدب، وسعيد؟ لك حق والله، ما دامت الكتابة الآن عاهرة، تفتح ساقيها لكل من كان لديه قلم. الصبر الصبر يا قُرّائي الحلوين. لنكمل..

نزار

"في النهاية، لم أستمع لكلام الحارس.. لم أستمع إليه أبدًا"
حسنًا، للوصول لتلك الجملة، يجب أن نعود للبداية، حين ترددت تلك الكلمات بذهني. (الحلم هو القدر)
الحلم هو القدر. قرأت ذلك بمكانٍ ما. لا أتذكر أين. كما أنني لا أستوعب ما تشير إليه كليًا. ولكن الجملة لا تكف عن التردد بذهني، خاصة تلك الفترة، عندما تحوَّلت من موظف بنك إلى صانع أحلام. بدأت تلقي الملاحظات حول تغيير مزاجي هذه الأيام. الكل لاحظ أن هناك تغييرًا حدث، لكن الكل يجهل السبب. أقسم الغالبية على حبٍّ جديدٍ؛ كنتُ أكتفي بابتسامةٍ فقط، لا تنفي، لا تؤكد. من هؤلاء الكل، شخصٌ، كان يُثير حيرتي، أراقبه بصمتٍ باستمرارٍ، لا أعلم ما علاقته بأحلامي، أو بزوجتي. الحلم هو القدر، هل لتلك الجملة علاقة بهم؟ هل هما حقًا على علاقة لذلك القدر كان ينبهني دائمًا؟ فكرت أن ألقي إليه الكُرة قليلًا، أن أرخي الحبال زمنًا، أن أقدم الطعم وأنتظر.
- قل لي يا طارق، كيف حال زواجك؟
التفت إليَّ مندهشًا، عادة أنا لا أتحدث معه في أمور الزواج أو المشاكل الأسرية، غالبًا لا يتخطى حديثنا نطاق العمل، ولكنه حاول تخطي دهشته قائلًا:
- سعيدٌ جدًّا، لماذا؟ أتفكر في تكرار التجربة؟

- ربما. قل لي، ما رأيك بـ إمممم، ما رأيك بزوجتي السابقة؟
كنتُ أراقبُ تغيرات وجهه، حاجبيه، بؤبؤ عينه، كنتُ أرتقب أي حركة تؤكد ظنوني، لكنه رد بنفس الدهشة السابقة:
- رأيي بها كيف؟ أنا لم أرها سوى مرةٍ واحدةٍ بحفل ترقيتك، وأنت لم تحك عنها كثيرًا.
- فاهم، أقصد، هل هي جميلة؟ من النوع الذي قد يجذبك؟
- لا أفهم ما ترمي إليه بهذه الأسئلة يا نزار، لكن الحديث عن زوجتك السابقة لن يكون مفيدًا لك، أنت تجاوزت تلك الأزمة بصعوبة، ولا أود أن أعيدك لتلك الذكريات.
بتلك الأسئلة لم أكن أرخي الحبال ولم أرمِ إليه الكرة، ولكن أقول إني قد وجهت الكرة لوجهه بأقصى قوة، مباشرة وبدون مجال للمراوغة.. ولا أقول إنني أصبته، فإجاباته، بصراحة وأكره أن أعترف بذلك، كانت حذقة وذكية، ومراوغة بالتأكيد، ولم أخرج منها بما يشفي الصدر.

في المساء، تحديدًا عند العاشرة وثلاثين دقيقة، وبعد أن تناولت عشاء خفيفًا، جبن قليل الملح، وخبز، وكوب شاي، تفقدت مخزوني من المادة. كيس، اثنان، ثلاثة.. فقط ثلاثة؟ أدركتُ أني بحاجة لزيارة قريبة لدكتور فريد.
الشعور الذي تولد لديَّ تلك اللحظة أرعبني. خوفي من انتهاء المادة ولَّد لديَّ خوفًا جديدًا، وهو أن أكون أدمنت تلك المادة..

تلك مصيبة، بالطبع أفضل أن أكون تعيسًا معافى بدنيًا على أن أكون سعيدًا مدمنًا. في الحقيقة، جسدي سليم، لا أشعر بشيء غريب، لا أشعر بغثيان، صداع، تشنجات، جسدي لا يُلح في طلب المادة. كل شيء يسير بشكلٍ طبيعي. المادة لا تُسبب الإدمان إذن.. ارتحتُ كثيرًا لما توصلت له. ألقيت بجسدي على الأريكة، نثرت محتويات الكيس على المنضدة، وسحبت.

لثوانٍ معدودةٍ، لم يحدث شيء. لم أشعر بالذرات تقتحمني، ولا صداع يلفني، لا شيء. وعند الدهشة الأولى، حدث كل شيء، في آنٍ واحدٍ. الصداع، ذرات تنتشرُ برأسي وتلتصق بجدرانها، بياض لا نهائي احتل الرؤية، ثم تدريجيًا، بدأ الحلم.

كنتُ وحدي أقف. لا أعرف لماذا يُحب الحلم أن يبدأ وأنا وحدي؟ لماذا لا يتخطى تلك الجزئية حتى ألتقي ببيسان مباشرة؟ كنتُ وحدي أقف، ولا شيء حولي، لا شيء بمعنى لا شيء فعلًا، لا مباني، لا بشر، لا زرع. فقط أرض أسفلتية ممتدة إلى ما لا نهاية. كان الجو معتدلًا، واتجاه الشمس يشير إلى أن الوقت عصر، مع ريح خفيفة تدفعك برفق للأمام. الجوُّ مناسبٌ جدًا للطيران، فكرت في ذلك، لا مباني ولا بشر، السماء والأرض لك وحدك، فردت ذراعيَّ لآخرهما، دفعت نفسي للأمام، تركت الريح تحملني، ارتفعت بسهولة ويسر، حركت ذراعيَّ قليلًا لضبط الاتجاه، شعورٌ جميلٌ بالحرية. يجب على الإنسان أن يطيرَ من وقتٍ لآخر. بعد فترةٍ بسيطةٍ من التحليق أدركتُ أنني خارج

حدود الواقع والمنطق، وأن ما أفعله الآن ما كان له أن يتحقق على أرض الواقع، فنزلت مرة أخرى للأرض، لسببٍ بسيطٍ، لا أريد أن أشعر مع بيسان أننا نحيا في وهمٍ لا وجود له. أريد أن أشعر بأن ذلك هو عالمي الحقيقي، وأن حياتي الأخرى هي مجرد حُلم لشخصٍ آخر ستنتهي بمجرد استيقاظه.

بحثتُ عن بيسان كثيرًا، لا شيء حولي، ناديت عدة مراتٍ، لا إجابة أيضًا. لاحت لي من بعيدٍ عدة مبانٍ صغيرة، تتراص أفقيًّا كشواهد قبور كثيرة، يحميها من الخلف جبل ضخم، جبل مخيف، يبث الرعب بالقلوب. اقتربت بهدوءٍ حذرٍ، لاح لي شبح أبيض يقف أمام المباني ممسكًا عصا غليظة، بدا كل شيء مخيفًا حولي، انتابتني قشعريرةٌ باردةٌ.. الهواء ثقيلٌ.. الشمس توارت خلف الغيوم.. اللوحة تحولت لضبابية؛ الكل وضع ريشته بها. بالتأكيد ذلك العالم ليس من رسمي. هل ضاعت قدرتي بخلق الأحلام؟ أم أن مفعول تلك المادة انتهى؟ هذا ليس من صنعي بالتأكيد. أين ذهبت الأرض التي تشبه الكراميل؟

أشار لي الشبح بالاقتراب، اقتربت بخوفٍ، وضحت هيئة الشبح، كان رجلًا، رجلًا عجوزًا، يرتدي جلبابًا أبيض، عمة بيضاء، ممسكًا بعصا غليظة بيدٍ، والأخرى يُداعب بها لحيته الطويلة؛ كان يبدو كشيخ مسجد، أو خادم مقام. تنبهت إلى إشارته لي بالجلوس، جلس على مصطبةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ، وأشار أن أجلس جانبه، جلستُ متسائلًا:

- من أنت؟
- من أنا؟.. حسنًا، بخصوص من أنا.. سؤالٌ بسيط، لكن إجابته مُعقدة وتحتاج لشرحٍ طويلٍ، ولا أعتقد أنك تملك الوقت لذلك، ولكن دعني أقل لك باختصارٍ: أنا حارس، اسمي هو ما أنا عليه، فأنا بالفعل حارسُ هذا العالَم، أو المُنظم له.
- حارس؟ وما حاجتي لحارس؟ ثم إن هذا عالمي أنا، لماذا أقحمت نفسك فيه بتلك الطريقة؟
- لا تنفعل! التزم الهدوء. أنا لم أقل إنني حارس لك أنت؛ أنا قلتُ: أنا حارس هذا العالم ومنظمه. أنا أتفهم رغبتك في تكوين عالمك الخاص بك، ولا أعترض على أن هذا حقك المشروع.. لكن يا بني، الأمور لا تسير بتلك الطريقة، هناك قوانين يجب الالتزام بها، السير عليها، وعدم الانحراف عنها، حتى لا يحدث خللٌ بالكون، وأنا هنا لهذا الغرض.
- قوانين؟ ظننت أن فريد قال إنه لا قوانين بهذا العالم، وكنت أظن أيضًا لو أن هناك قوانين ستكون من صنع يدي أنا، لا أحدًا آخر.
- نعم نعم.. فريد مُحق بعض الشيء، فهنا لا قوانين بالفعل، لكن المقصود بها أن قوانين عالمك لا تعمل هنا؛ بمعنى: هنا لا جاذبية، لا منطق، أي شيء تريد فعله يمكنك ذلك. لكن لهذا العالم قوانينه الخاصة، التي لا يُمكن الخروج عنها، والتي تُحاول أنت الآن كسرها. وأنا هنا لا لأمنعك، ولكن لأحذرك

وأوضح لك بأن ما تحاول أو ستحاول فعله سيؤثر على توازن العالمين، فلا تفعل ذلك!

- أفعل ماذا؟ لا أفهم شيئًا، كف عن تلك المرواغة واشرح لي مباشرة!

- أتذكر آخر كلماتك مع بيسان؟ كانت (أريد أن أراكِ).. ماذا كنت تقصد بذلك؟

- أقصد أني أريد أن أراها بالفعل، في واقعي، عالمي الحقيقي، ليس فقط هنا.

- حسنًا، ولذلك أنا هنا.. لا يمكنك ذلك يا بني، حاول أن تفهم، الخطوط المتوازية لا تتقاطع، وكذلك العوالم، يجب أن يسير كل عالم في طريقه، يجب ألا يتقاطعان، حاول أن تستوعب ما أقول!

- ولكن لماذا يا حارس؟ ما الضرر؟

- الضرر كبير، القدر يا بني لا يحب الألاعيب، ولا يمكنك هزيمته في كل الأحوال، لا علاقة بين ما نريده أو نتمناه وبين ما يفعله القدر بنا. لن تجلب لنفسك سوى التعاسة بتلك الطريقة. عشْ عالمك كما يحلو لك، فقط في عالمك، حسنًا؟

- حسنًا، فهمت. لكن لديَّ استفسارًا من فضلك، هل أنت حارس كل العوالم؟ أقصد هل العالم الموازي لدكتور فريد أو أي عميل آخر، هل أنت من تظهر لهم؟

- لا يا بني، لكل عالم حارسه الخاص، عددنا كثيرٌ جدًّا، بعدد البشر، لكل إنسان عالمه الخاص، يذهب إليه كل ليلة بأحلامه.

مسئوليتنا تنظيم تلك الأحلام بما يتوافق مع طبيعة ذلك الإنسان. نحاول كشف له نفسه، تعريته أمام روحه. مهمتنا نحن أن نُعرف البشر على أنفسهم، نحذرهم من خطر قريبٍ، نزف لهم بشرى سارة. وفي الغالب لا أحد منا يظهر لأحد، لأنه في الغالب لا أحد يُحاول كسر القوانين، ولكن بعد اختراع ذلك الدكتور أصبح البعض منا متفرجًا فقط، ولا أخفي عليك، هذا يُثير قلقنا بشدة، فإذا انتشرت تلك المادة بين البشر، سنتحول تدريجيًّا لجماهير متفرجة، وسيصبح الخطر أكبر. أنت لا يمكنك التنبؤ بأفعال البشر. انظر إليك! أنت تحاول كسر القوانين، ومن المؤكد سيحاول آخرون، وتنتشر الفوضى بين العوالم، سيكون الوضع رهيبًا.

- حسنًا يا حارس. فهمتُ الآن ما تريد قوله، سأحاول أن ألتزم بما قلته لي.

- أتمنى ذلك يا بني، أتمنى ذلك بالفعل. والآن دعني أرحل حتى تلحق بعالمك، أراك بخير.

تبخر الحارس من حولي مع آخر كلمات، تلفت حولي، اختفى الجبل، والمباني الصغيرة. تجلت الشمس مرةً أخرى من خلف الغيوم، وظهر الشاطئ من بعيدٍ، وبالقرب من الشاطئ كانت تقفُ بيسان وتلوح لي.

اقتربت منها بسرعةٍ وقلبي يرقصُ طربًا، كانت تلبس فستانًا أبيض قصيرًا، فضفاضًا من الأسفل، تاركة شَعرها الليلي يتدلى

بنعومةٍ على كتفيها، ترسم ملامح العبوس على وجهها الرقيق، مع ذلك، ساحرة كما هي.

- لماذا تأخرت؟ قالت بيسان بعبوسٍ مُصطنعٍ.
- اعذريني يا حبيبتي، قصة طويلة، سأقصها لكِ فيما بعد، هيا بنا الآن، دعينا لا نضيع المزيد من الوقت!
- إلي أين؟
- أي مكان معكِ، هو الجنة.

تمشينا كثيرًا، تحدثنا حول الكثير من الأشياء، ولكن لن أخفي عليكم، كنت مشغول البال جدًّا، كلام الحارس ما زال يتردد في ذهني، لاحظت بيسان ذلك وسألتني: ما بك؟ تبدو مشوش الذهن اليوم. أجبتها بلا شيء، فقط مرهق قليلًا اليوم. لقد فهمت كلام الحارس جيدًا، لكن بصراحة لم أهضمه، ما معنى بأن لكل عالم قوانين؟ مَن وضع تلك القوانين؟ هذا عالمي، صُنع عقلي، وإذا كان هناك أحد يجب أن يضع القوانين، فهو أنا أكيد. لكن الحارس يبدو أكثر خبرة، أعتقد أنه على الأقل الآن يجب أن ألتزم بما قاله، حتى لا أفسد ذلك العالم أيضًا. جلسنا أنا وبيسان على سور الشاطئ، محتضنين أيادي بعضنا، فكرت في أن أحكِي ما حدث لبيسان، ولكن نفضت الفكرة سريعًا، فلا فائدة منها، ولكن القليل من جس النبض لن يضر.

- قولي لي يا بيسان، هل كنتِ ستحبينني لو أننا في عالم آخر؟
- عالم آخر كيف؟ لا أفهم.
- يعني .. أقصد لو أنكِ مثلًا ولدتِ مرة أخرى في عالم آخر، وتقابلنا، هل كنتِ ستحبينني أيضًا؟
- اه، طبعًا، يا حبيبي، نحن مُقدر لنا الحب، بأي عالم كان، سنكون حبيبين.
- أمم ..وكيف عرفتِ يا حبيبتي، أنه مقدرٌ لنا الحب؟
- منذ أن رأيتك المرة الأولى أدركت، بطريقة ما، أنك قدري ونصيبي، أتعرف ذلك الشعور حين ينتابك تجاه شخص معين لتدرك أن ذلك الشخص هو نصفك الآخر؟ أتعرفه؟ لقد شعرت به أول مرة رأيتك، الأحباب يتلاقون يا حبيبي، مهما حدث، فهم يتلاقون.
- اه، أفهم ذلك الشعور، لكن يا حبيبتي، قد يكون مقدرًا لهم الحب بالفعل، لكن مقدر لهم الفراق أيضًا، فالقدر مثل ما يمنح الحب، يمنح الفراق والبُعد أيضًا، القدر لعين، لا تأمني له.
- حبيبي، العشاق لا يفرقهم إلا الموت، لا شيء آخر يفرقهم، أنا لن يُبعدني عنك إلا الموت.
- أتمنى ذلك فعلًا يا حبيبتي، ألا نفترق أبدًا. لكن ..حبيبتي، لماذا أراكِ مشوشة أنت أيضًا اليوم؟ هل حدث شيءٌ ما؟
باغتها سؤالي، ترددت قليلًا قبل أن ترد:
- امم، اه... حدث شيءٌ غريبٌ اليوم، أول مرة يحدث لي.

- حقًا؟ما هو يا حبيبتي؟ احكِ لي!

- طيب، لكن لا تظني انني مجنونة، تمام؟ .. قبل أن أنزل إليك اليوم، وقفت كثيرًا أمام دولاب ملابسي، محتارة في ما أرتديه، ثم استقررت على ذلك الفستان الأبيض، ارتديته وسرَّحت شَعري، وضعتُ عطري، وقبل أن أنزل وقفتُ لألقي نظرةً أخيرةً أمام المرآة، ما حدث بعد ذلك، هو الغريب. وجدتُ المرآة فارغة، لم أر نفسي فيها، وكأنني هواء، فراغ، ثم ظهرت صورتي فجأة، ارتعبت جدًّا، وجريت حتى وصلت لهنا، وانتظرتك.

ما حدث يدل على أنها في طريقها لاكتشاف حقيقة وجودها المادي، خفت أن أثير ذعرها وفكرت أنه يجب أن أمهد لها الموضوع.

- حبيبتي، يبدو أنك لم تنامي جيدًا ليلة أمس. أثر الإرهاق يبدو في عينيك، من المؤكد ذلك حدث بسبب الإرهاق، وقلة النوم. لا تقلقي، يحدث ذلك معي أحيانًا أيضًا.

- حقًّا! لقد كان شيئًا مرعبًا جدًّا، لقد اعتقدت لوهلةٍ، لوهلةٍ بسيطةٍ، أنني سرابٌ، لا وجود لي.. نزار، دعني أضمك، أنا خائفة بالفعل.

- لا تخافي، أنا بجانبك، ومعك.. لن أتركك أبدًا.

كانت تلك الكلمات تُعذبني، لقد أحببتها حقًّا، لا أستطيع أن أتخيل أن يمر يومٌ بدونها، تلك الكلمات تُعذبني لأني خائفٌ،

خائفٌ أن ينتهي ذلك الحلم الجميل يومًا. كل شيء جميل ينتهي دومًا. في النهاية سيوجد نهاية. أنا أعيش بسعادةٍ الآن، نعم أعترف، أعيش أجمل أيامي، أحب بصدقٍ من قلبي، لكني خائفٌ على تلك السعادة والحب. لاحظت بيسان شرودي مرةً أخرى، فسألتني مرة أخرى: ما بك أنت أيضًا اليوم يا حبيبي؟ لا شيء يا عمري، أجبت أنا. أفقت من شرودي، تمشينا حتى السينما، كان هناك فيلمٌ فرنسي يُعرض اسمه love. شاهدناه معًا.

صراعٌ داخلي اشتعل في صدري في نهاية اليوم، أنا أريد أن أرى بيسان في الواقع أيضًا، ذلك العالم لا يكفيني، يجب أن أقضي معها كل ثانية بالعمر، من ناحيةٍ أخرى، العقل يُنبهني إلى أنني يجب أن أستمع لكلام الحارس العجوز، في النهاية لم أستمع لكلام الحارس.

- بيسان، أريد أن أراكِ.

استيقظتُ فجأةً مع آخر حروف كلماتي، وكأنني نطقت بكلمة سر أيقظتني، ولكني سعيدٌ بقراري بأي حال، ففي النهاية لم أستمع لكلام الحارس، لم أستمع إليه أبدًا.

***

لا أجد كلماتٍ، أو على الأقل، كلمات مناسبة لأحكي ما حدث. الصدمة أكلت لساني كما يقولون، لكن سأحاول أن أقول باختصارٍ شديدٍ، الإطالة والمط لن يفيدا كثيرًا.. أنا أيضًا أحب أن أقول كل ما لديَّ مباشرة، بدون مراوغةٍ أو فلسفةٍ.. حسنًا.. سأقول الآن، لكن الكلمات فعلًا لا تخرج بسهولةٍ من فمي. دعوني آخذُ نفسًا عميقًا، بعدها سأقول كل ما لديَّ.

نفَسٌ عميقٌ، ثم عدة أنفاسٍ أخرى.

حسنًا..

الرجالُ خائنون. هذا هو الأمرُ باختصارٍ شديدٍ، أظن الآن الكثير فهم ما أرمي إليه. نعم هذا هو ما حدث، لكن دعوني أضع بعضًا من التفاصيل، فالكثير يُحبون التفاصيل. الرجال خائنون، جميعهم بدون استثناء، حتى ذلك الملاك المُحب، مَن يُجيد حياكة التفاصيل الرومانسية الصغيرة التي تعشقها المرأة، حتى ذلك الملاك خائنٌ أيضًا، تأكدوا من ذلك! النصف يخونُ بالفعل، والنصف الآخر فقط ينتظر الفرصة المناسبة. أحمد خانني، المشكلة ليست في ذلك، وليس هذا ما جرحني، المشكلة أنه فعلها مع دينا ابنة خالتي، تلك الفتاة التي تُحاول تقليدي في كل شيء، مَن تُحاول أن تكونَ صورةً مُصغرةً مني، ذلك المُغفل

تعلق بالصورة رغم وجود الأصل معه. بدأ الشك يُساورني ذلك اليوم في الكافيه، حين فجأة وبدون مقدمات، سألني عنها:

- ريم، دينا ابنة خالتك، ماذا تفعل هذا الأيام؟

- لماذا تسأل؟

- لا، أبدًا. لي صديقٌ يبحث عن عروسة، وفكرت أنه، ربما قد تكون مناسبة له؟

- ولماذا تعتقد أنها ستكون مناسبة له؟ أنت لم ترها سوى مرةٍ واحدةٍ فقط بعيد ميلادي.

- ما كل تلك الأسئلة يا حبيبتي؟ كل الموضوع أن صديقي يبحث عن عروسة جميلة، فتذكرت دينا قريبتك، كنتُ أفكر في ترشيحها له، لكن فكرت أن أسألك أولًا، ربما تكون مرتبطة أو أي شيء آخر.

- أنت تراها جميلة إذن؟ حسنًا، تلك الجميلة أعتقد أنها ليست مرتبطة الآن، لو صديقك يود رؤيتها، قل لي وسأرتب ميعادًا لهما، لكن قل لي الآن: مَن أيضًا مِن صديقاتي أو أهلي تراها جميلة؟ أود أن أعرفَ ذوقك.

- يا حبيبتي، أنتِ الجميلة الوحيدة بهذا العالم، صدِّقيني، أنا لا أرى سواكِ، ولا أريد سواكِ أيضًا.

هنا كانت البداية. بدأت الشكوك تُساورني، وبدأتُ في مراقبته أكثر، بدأ الأمر يتحول إلى يقينٍ عندما ظهر لي على صفحة الفيس ما يفيد بأن أحمد ودينا أصبحا صديقيْن الآن. لم أفاتحه

بالموضوع، وفضلت أن أراقبه من بعيدٍ دون أن يشعر، تحققت من هاتفه، ووجدتُ ما كنتُ أتوقعه بسهولةٍ، عدة مكالمات بينه وبينها، حتى إنه يُسجلها باسمها دينا، ولم يُحاول أن يُغير الاسم حتى، واثق جدًّا من أني مُغفلة ولن أعلم، دخلت عليه مرةً فجأةً المكتب فسمعته يهمس بالتليفون (غدًا الساعة ٦ بمكاننا)، وحين سألته مع مَن ذلك الميعاد؟.. صديقي يريدني بموضوع مهم، أجاب بذلك. ولأني لا أعرف المكان فقررت أن أنتظره خارج المكتب، أخذت إجازة ذلك اليوم، حتى لا يظهر عليَّ أي انفعالٍ طوال اليوم معه، وانتظرت على مسافةٍ بعيدةٍ من المكتب، تبعت سيارته حتى كافيه كوستا على البحر، ركنتُ بعيدًا قليلًا وانتظرت، ثم ترجَّلت وسرتُ ببطءٍ وتوترٍ حتى الكافيه، دخلت واصطدمت بمشهدٍ كنتُ أرسمه بخيالي منذ قليلٍ، أنا أعرفُ أنه يجب عليَّ ألا أصطدم من شيء متوقع، لكن على الرغم من توقعي ورسمي للمشهد بكل التفاصيل، فإن صدمتي كانت كبيرة، كان هناك جزءٌ صغيرٌ بداخلي يتمنى أن يكون كل هذا خيالات لا أكثر، وجدتني أبكي بصمتٍ، والدموع تنهالُ دون توقف، القلبُ ممزق وكأن أحدًا غرز به سكينًا وأدار مقبضه عدة مراتٍ، خلعت دبلته بعنفٍ وقذفتها في وجهه بقوةٍ، قلتُ لهما جُملةً واحدةً وبعدها رحلتُ: (كل منكما يليقُ بالآخر بالفعل، هو نذل، وأنتِ عاهرة).

- ريم، انتظري! الأمر ليس كما تظنين، انتظري كي أشرح لكِ الموضوع!

- ريم من فضلك انتظري قليلًا! الموضوع به سوء فهم كبير أقسم لك، لا علاقة بيني وبين دينا، توقفي قليلًا كي أشرح لك!

- ريم، الناس كلها تنظر لي وأنا أجري وراءك هكذا، من فضلك، اسمعي ما سأقول ثم احكمي.. أقسم لك، لا يوجد أي شيء بيني وبين دينا، أنت تفهمين الموضوع بشكلٍ خاطئ.

ظل هكذا، يجري ورائي حتى وصلت لسيارتي، وأنا أتجاهله تمامًا، ظل بعدها يبعث برسائل على الموبايل والفيس، حتى إنه أتى لمنزلي أكثر من مرةٍ ولم أفتح له، كذلك دينا ظلت تبعث برسائلَ ومكالماتٍ كثيرةٍ، لم أرد عليها، طلبت إجازة شهرين من صاحب العمل، غيَّرت رقم الموبايل، كنتُ أريد وقتًا طويلًا وحدي، أو بمعنى آخر، كنتُ أريد وقتًا طويلًا، مع شبحي الوسيم. الأمورُ تطورت أكثر مع شبحي الوسيم. اتخذت منحنى لم أكن لأتوقعه أبدًا، وهنا يجب عليَّ الاعتراف وعدم إنكار أنني أحببتُ ذلك العالم الجديد.. وربما أيضًا، يجب أن أشير- ولا أخفي عليكم- إلى ذلك الشعور المتولد بقلبي تجاه ذلك الشبح، بالتأكيد الكل سيظن بي الجنون، ولهم الحق في ذلك، فأنا أيضًا، أظن أن هناك خطبًا ما بعقلي، ولكن على أي حال، أنا أحب ذلك العالم الجديد، أحب كل ما أعيشه خلاله، تلك الخيالات اللا محدودة التي تقفز بك من الواقع لأراضٍ سريالية لا وجود

لها، أشعر بأني أعيش داخل لوحةٍ لدالي، هل من الممكن ذلك بالفعل؟ أن أكون أنا مجرد تخيلات فنان سريالي، يتخيل لوحة يرسمها، أو قصة يكتبها؟!! ربما أنا لا وجود لي بالفعل، ربما أنا مجرد شخصيةٍ خياليةٍ رسمها كاتبٌ مريضٌ نفسيًا- وأقول مريضًا نفسيًا، لأنه لا يوجد كاتبٌ سوِي يرسم شخصية كشخصيتي بالتأكيد، فأنا شخصية مُعقدة، جبانة، ضعيفة، تخشى المجتمع وما يُخفيه الزمن- ربما يجلسُ الآن يضع الخطوط العريضة لنهايتي، النهايات المُحتملة، السعيدة، أو البائسة.. ربما يبتسم الآن- بعد عدة أنفاس، من سيجارة رديئة، مثله- وهو يضع مشهد خيانة خطيبي، بالتأكيد هو وغد مثله. لكن، لو كل ذلك حقيقي بالفعل، وأنا مجرد شخصية على الورق، فبالتأكيد أدرك الكاتب الآن أنني أدركتُ خدعته، وبالتأكيد أيضًا، أن ذلك سيُرعبه. حسنًا، هذا يمنحني موضع قوة إلى حد ما، يُمكنني أن أفسد على الكاتب قصته، كما أفسد حياتي ذلك الملعون.

آآآآه يا ربي، ما كل هذه الأفكار؟ دماغي أصابته لحسة وجُننت؟ بالتأكيد هذا، وصلتُ لمرحلةٍ متأخرةٍ أيضًا، التفكير لعنة، متى سيرتاحُ عقلي من كل هذا؟ أنا بحاجةٍ ماسة لزيارة دكتور عمر، الكثير من التفاصيل والتطورات يجب أن يعرفها، يجب أن يجد لي حلًا، حياتي أرهقتني، حقًا أُرهقت.

***

صفحات مُقتطعة من مذكرات د. عمر
١٤مارس ٢٠١٦

كنتُ أحمق قليلًا، أعترفُ بذلك.. تسرعت في تشخيص حالة ريم، كنت أظن الحالة سهلة، مرَّ عليَّ مثلها كثيرًا، لكن الأمورَ تعقدت وتشابكت، ظهرت تطوراتٌ جديدةٌ بالموضوع. يجب عليَّ إعادة ترتيب كل الأفكار من البداية، وضع كل التفاصيل بجانب بعضها البعض، لأنه بالتطورات الجديدة للحالة، ظهر أمامي عدة أمراض نفسيةٍ جديدةٍ، أيهما التشخيص الحقيقي، هذا ما سأتوصل إليه بعد دراسة الحالة جيدًا. حسنًا لو وددنا وضع التطور الجديد تحت المجهر، وحاولنا الوصول لتفسيره الصحيح، سيكشف لنا الكثير من جوانب الحالة. هنا لا أجد ضررًا في مناداة ريم بـ (الحالة) لأني نحَّيت عمر العاشق جانبًا، وما يتكلم الآن ويبحث ويدرس، عمر الطبيب فقط، ضميري المهني انتصر في النهاية.

التطور الجديد يُفيد بأن ريم وذلك الفتى من الحلم شاهدوا فيلمًا معًا بالحُلم، ذلك جميل، وطبيعي. الغريب والمدهش ما حدث بعد ذلك، هو أنها عندما شاهدت ذلك الفيلم مع خطيبها في الحقيقة، كان بنفس التفاصيل والأحداث كما بالحلم، كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ في اعتقادي أن تفسير ذلك من الممكن جدًّا أن يكون كل هذا مجرد أوهامٍ وهلوساتٍ، وهذا يقودنا بالضرورة إلى مرض انفصام الشخصية، وهذا وارد جدًّا؛

أن تكون ريم شاهدت الفيلم من قبل دون وعي أو إدراك، ثم حلمت به، ثم شاهدته مرةً أخرى بوعي. عدة أمراض أخرى أراها تتجوَّل بذهني الآن، ذهان، افتهام لا شعوري، رنح نفسي، والكثير، صعب التحديد الآن. وهناك احتمالٌ آخر، احتمالٌ ضعيفٌ لكنه غير مستبعدٍ تمامًا، ونادرًا ما يحدث، نعم العلم سجل الكثير من الحالات الغرائبية، والتي لم يجد لها تفسيرًا علميًّا أو نفسيًّا أو منطقيًّا، حدث فيها مع يحدث مع ريم، أرواح حقيقية تتقابل بالأحلام، لهم وجودٌ بالفعل. لكن لندع ذلك آخر احتمالٍ لنا، لو صدَّقت ريم بكل ما تقوله، ولو أثبتت الدراسة صدق قولها، ستكون حالة ريم من الحالات النادرة بالفعل وهذا ما أستبعده أنا، أعتقد أن ريم مريضة نفسيًّا فعلًا، كل تاريخها النفسي يشير إلى ذلك. حسنًا، سنرى.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٦

ذكرتُ من قبلُ أني أختبئ في روايتي، ووعدتُ القُرّاء بالكشف عن شخصيتي في منتصف الرواية، حسنًا، أنا عند وعدي، حان الآن موعد كشف الستار، جاهزون يا قُرّائي الحلوين؟ تان تان تا.. أنا حارس.. حارس العوالم العجوز. هاهاها. لم يكُن أحدٌ يتخيّل ذلك! أليس كذلك؟ أنا أتنكّر في شخصيته، الحارس الحقيقي أرسلته في رحلة إلى عالم برزخي بعيد، لن يعود منه قبل انتهاء الرواية. في البداية، جلستُ معه، جئنا بأحجار المعسل والأفيون، وبعدما لعب الأفيون برؤوسنا، دفعته دفعًا ليعطيني حكمته، دحرجتُه في الكلام، حتى فهمت ماهية حراسة العوالم، أنا ذكي ولقّاح، استوعبتُ سريعًا ما قاله، جلستُ على ركبتي وبكيت، قلت له: صديقي محبوس في عالم موازٍ بعيد، مقدمته أشجار بلوط، وخلفها جبال وكهوف حمراء، وخلفها بحر مياه بنفسجية. وصديقي هناك محبوس. ولمّا سألني عن حارس ذلك العالم الموازي الغريب، قلت له: إن

الحشيش والنسوان لعبوا برأسه، وترك وظيفته كحارس، ويتمرمغ ليلًا ونهارًا بين أحضان النسوان. اغتاظ الحارس العجوز جدًّا، مع الأفيون، أخذته الشهامة، وقال: ذلك الملعون يهين قدسية مكانتنا، يجب أن أقتله وأرجع بصديقك. وأخذ قاربه وطار في السماء، وأنا أرقص وأصفق فرحًا. هاها، حارس مغفل.

وأنت يا «نزار» ألم تعرفني؟ أنا صديقك يا جدع، هاها، ربما التنكُّر هو السبب، الشعر الأشيب واللحية، والظهر المقوس، شيء فاخر. لكن ما رأيك في حكمتي ووقاري وأنا أضخِّم صوتي وأقول: «القدر يا بني لا يحب الألاعيب»؟ هاها. أحببتني وأنا عجوز وقور؟ الرواية تحلو الآن.

أما أنتِ يا «ريم»، فتثيرين قلقي يا فتاة، فرضيتك بأنك شخصية في رواية تقول إنك قريبة من أن تتوصلي إلى حقيقتك. أنا أتلف عقلك وأدفعك للجنون، وأنتِ تفكرين بعبقرية؟ الجنون يصل بك إلى هذه العبقرية؟ ولكن اطمئني، هل يظن الكل أني «سالم» أم ماذا؟ أنا إلهكم الخاص يا ملاعين.

بدأتِ تثيرين غضبي يا «ريم». حسنًا لنكمل..

نزار

"هل يمكنني النوم إلى الأبد؟"

تسلل ذلك السؤال إليَّ بعد الكثير من التفكير، هل يُمكن ذلك فعلًا؟ أودِّع العالم، ربما ببصقةٍ، وسباب خفيفٍ، أندسُّ في فراشي، أسحبُ أغطيتي، ألقي رأسي برفقٍ، أغمض عينيَّ وأنام، إلى الأبد. هل يُمكنني ذلك؟ لا أريد الموت بالتأكيد، الموت مؤلم، كما الحياة. فقط أريد نومًا هادئًا، عدة منامات متصلةٍ، لا تقطعها يقظة، رنين منبه مزعج، مثانة متضخمة، بعوضة جائعة، ألا يمكنني أن أحصل على نومٍ هادئ في هذا العالم؟ لماذا النوم؟ ربما تتساءلون، ففي نومي بيسان، وذلك يكفي لأن أرغب في نومٍ أبدي.
لماذا لا يُتاح لنا ذلك الاختيار؟ نحن لا نملك الكثير من الخيارات حولنا، لا نملك تلك الرفاهية. العوالم الموازية كثيرة، بعدد البشر، لماذا نحن مُجبرون على العيش هنا، في عالمٍ واحدٍ ضيِّقٍ كالقبر، لا يتسع لنا. هناك طريقةٌ حتمًا، لكسر قوانين هذا العالم، يجب أن أجدها، أن أحضر بيسان إلى عالمي، أو أن أذهب أنا إليها، هناك طريقٌ بالتأكيد، ولكن كيف الوصول؟ ربما بعد الكثير من الصلوات سأعرف، وربما لا. القدرُ لا يُحب الألاعيب، هكذا قال لي حارس، ربما سأغضبه بما أنوي، وربما يستجيب لرغبة ابن آدم مرة، أنا والقدر على غير وفاقٍ، أشعر

بذلك دائمًا، يضع العراقيل والسدود بطريقي، وأنا ضعيفٌ، لا أجيد القفز، أو الالتفاف، فدائمًا تكون نهايتي، بووووم.
خطرت لي الآن فكرة، سأنفذها الليلة، قبل أن أحاول أن أجلب بيسان إلى عالمي، يجب أن أتأكد، وأتيقن تمامًا، بما لا يدع مجالًا للشك، أن هناك خيطًا بين العالمين، وأن عالمي الموازي يؤثر هنا بشكلٍ ما، أو هناك يؤثر عليه بشكلٍ ما، ذلك الخيط، يجب أن أجده.

في المساء..

بدأ الحلمُ بطيئًا، كل الألوان حولي تتحوَّل للأبيض برتابةٍ وملل. وأنا أقفُ منتظرًا كمن ينتظر حافلةً لم تأت. تبدد الأبيض حولي أخيرًا، أقفُ وحيدًا كالعادة، على رمال شاطئ خالٍ، السماء مُلبدة، والغيومُ تحتل الصورة، والبحر هائجٌ كالثور، برودة خفيفة تلسعني، والهواء يسرقُ كوفيتي بإصرار، أحاول التشبث بها بالبداية، ثم أستسلم. أراقبها وهي تجري تُطارد حبَّات رمال تائهة، الآن اكتملت الصورة؟ ليس بعد. تحت قدمي الآن رمال، أشرت لهذا سابقًا، لكن تتناثر فوقها أحجارٌ صغيرةٌ مُلونةٌ من الصخور، ألوانٌ بديعةٌ، أراها لأول مرة. أنحني ألتقط إحداها، ألتقط الحمراء، لها ملمسٌ ناعمٌ وقوي، أعجب بها، أقرر جمع الكثير منها. أجد سلة على بُعد أمتارٍ من الصخور،

أجمع بها الأحجار، أختار ذات اللون الجميل، ألتقط الكثير من الأحمر، الأزرق، البنفسجي، الأخضر، حتى امتلأت السلة. أسيرُ بالسلة حتى أطراف الشاطئ، وهناك أستلقي، أفكر في فكرتي، ما أنوي فعله خطير، إذا ساء الأمر، ربما تنتهي حياتي، قبل أن تبدأ فعلًا. لكن ذلك العالم يستحق، أنظر حولي، أجده شبيهًا بعالمي، نفس الغيوم، نفس السماء، الفرقُ أن هنا بيسان، هنا قلبي.

أنظر إلى الساعة، ما زال لديَّ الكثير من الوقت، قررتُ وضع العلامات الأولية أولًا.

ألتقط سلة الأحجار وأسير حتى الشارع الذي أسكنُ به، الشارع نظيفٌ جدًّا، على غير العادة، العديد من الأشجار تزين الشارع، تتراص على الجانبين. الشارعُ خالٍ تمامًا من المارة والسيارات. مكانُ ركنتي المُفضل خالٍ أيضًا. ذلك الجار السمج لم يحتل مكاني. لأول مرة أحب شارعي. البناية التي أسكن بها لها نفس الشكل أيضًا، لكن بروحٍ مختلفةٍ. لا أعلم كيف أصف هذا، لكن كل شيءٍ هنا له روحٌ مختلفةٌ، روح جميلة مثل الكراميل.

أسيرُ حتى مدخل البناية، ألتقط بعض الأحجار من السلة وأخبئها بمكانٍ سري بمدخل البناية، ألتف حولها، أضع الأحجار حولها بجانب الحائط، أضعها بترتيبٍ، عند كل ناصيةٍ حجرًا. أصعد لمنزلي، أدخل الشقة، أدخل غرفة نومي، لا أجدني،

لكن الشقة مرتبة جيدًا، لأول مرة منذ عزوبتي تكون بهذا الشكل. أضع الأحجار تحت وسادتي، جيب الجاكت الأسود، درج مكتبي، حقيبة عملي، أضع كل ما تبقى من السلة بتلك الأماكن. أنظر لشقتي جيدًا، نظيفة، مرتبة، تفوح رائحة عطرة من جوانبها. كنتُ أتوقع أن أجد نفسي نائمًا، كنتُ سأصدم بالتأكيد إذا وجدتني هنا وهناك، لكن لم أجد شيئًا. أبحث بين أوراقي عن ورقةٍ فارغةٍ، ألتقط قلمًا وأكتب رسالة لنفسي، من الجيد أن يُرسل كل منا رسالة لنفسه من حينٍ لآخر، قتلًا للوحدة على الأقل.

"العالم هنا جيد. كل شيء نظيف، وهادئ. براحه يتسع لكلينا. إذا استطعت أنا الحضور، فبالتأكيد ستتمكن أنت أيضًا. إذا وقعت عيناك على هذه الحروف، فاعلم أن الأمر نجح".

أطوي الرسالة برفقٍ، أضعها على المكتب بوضوحٍ. أخرج من الشقة. أصعد إلى الطابق الأعلى. أطرق الباب بقوةٍ، يفتح لي جاري السمج، الأربعيني المختل، أستاذ عاطف الموظف بالشهر العقاري، يفتح الباب مبتسمًا، هادئًا، أعاجله بصفعتين على وجهه ثم بصقة. هل تعلم أنك جارٌ سمجٌ وثقيل الظل، تأخذ مكان سيارتي بالشارع دائمًا، وأنت تعلم أن هذا مكاني منذ زمن، لا تدفع في احتياجات البناية، تُعامل خادمتك كعبدة لديك، اشتكت لي أكثر من مرة، منذ زمن وأنا أود أن ألسعك على قفاك الضخم هذا يا حيوان. أخرج من جيبي مطواةً صغيرةً،

كنت أعلم أنها موجودة، أسحب يد جاري اليمنى، أغرسها بقوة في كفه، أغرسها جيدًا، لا أنصت لصراخه. بالتأكيد سيترك هذا تذكارًا جميلًا مني، أتركه وسط صراخه ودمائه، وأنزل مسرعًا. من المؤكد أن عاطف هذا يكرهني الآن، مثلي تمامًا. منحته أسبابًا كافية لتحطيم رأسي عند المقابلة التالية، وهذا ما سيُكشف بيقظتي. يُخاجلني شعورٌ بالسعادة الآن. هناك العديد من "عاطف" بحياتي، وأعتقد أن هذا وقتٌ مناسبٌ جدًّا لمنحهم تذكارات غير قابلةٍ للنسيان.

أترجل حتى البنك، مكان عملي، العملاء بالصالة يجلسون مبتسمين، جميعهم مبتسمون. أقتحم مكتب المدير بقدمي، وقبل أن يفيق من دهشته أمنحه صفعتين هو أيضًا قبل أن أقول: استمع إليَّ جيدًا يا مدحت، ما سأقوله الآن، لن أكرره مرةً أخرى، واعتبر هذا تحذيرًا أو تهديدًا، سمِّه كما يحلو لك. أعمل هنا منذ زمن، أنهي كل ما لديَّ من عملٍ على أكمل وجه، أحقق التارجت الشهري الخاص بي، وأغطي تارجت بعض الزملاء أيضًا، أحضرتُ عملاء للبنك ذوي أهمية عالية، وأنت تدرك ذلك جيدًا. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذا، كل مرة أطلب إجازة، أو زيادة بالمرتب، أو بعض الامتيازات، عليَّ أن أتذلل لك ككلبٍ أجرب، وأن أقدم الأسباب التي دفعتني لهذا. حسنًا، من الآن، ستنفذ كل ما أطلبه منك مستقبلًا.

أسحبُ يده اليمنى أيضًا، أغرس مطواتي بقوةٍ فيها، يصرخُ بقوةٍ،

ولا أنصت أنا. تتولد لديَّ رغبةٌ قويةٌ مُلحةٌ للاستمرار بغرس المطواة أكثر بجسده. أمدُّ نصل المطواة لوجهه، أصنع أحجية من عدة خطوطٍ متقاطعةٍ على وجهه.
أنزل قليلًا لرقبته، أغرس مطواتي حتى آخرها، تزدادُ صرخاته. أنزل للصدر، أطعنه بقوةٍ، ثم تُطالبني معدته بطعنةٍ، أهديها واحدة في الفم تمامًا. أشعرُ بجسده يرتجف في يدي، أقرر منحه واحدة أخيرة في القلب تمامًا.
تزدادُ سعادتي مع كل غرسة مطواة. يُراودني شعورٌ الآن، أود أن أذهب إلى الكثير وأغرس تلك المطواة في كفوفهم، وأجسادهم، لكن لا أملك الكثير من الوقت، كما أني لا أود أن أحول التجربة لانتقام شخصي، ذلك سيكون هدفًا مغايرًا لتجربتي.
ألتفت للخارج وأستعد للرحيل، توقفني ضحكاتٌ عاليةٌ من خلفي، ألتفت في دهشة، أجد مدحت كما هو، لا أثر طعنات ولا دماء تُغرق جسده، يقف سليمًا مبتسمًا أمامي، يلهو بمطواتي بأصابعه، تُصيبني دهشة صامتة.

- محاولة جيدة. لكن هذا الأمر لا يفلح معي. هاهاهاهاها
- لا أفهم، كيف حدث هذا؟ كيف رجعت سليمًا هكذا؟
- اجلس. اجلس يا نزار! أنت ضعيف العقل تمامًا، كنتُ أظن غير ذلك، ولكن تبين لي العكس، أشفق عليك. اجلس، سأحاول أن أشرح لك.

أجلسُ بصمتٍ، بينما يُتابع هو قائلًا:
- سأحاول أن أقول كل ما لديَّ جُملةً واحدةً، دون رموزٍ سريالية، أو تشبيهاتٍ لا معقولة. ألاحظ أن عقلك مجهدٌ ومنهكٌ، لن يتمكن من فك المزيد من الشفرات. العالم مليء بالأوغاد، وأنا أحدهم، أنت تعلم هذا، وإلا ما كنت حاولت أن تفعل ما فعلت. ومثلنا، لا يتم التخلص منهم بمثل هذه السهولة، عدة طعنات متفرقة، دماء تنزف بغزارة، وينتهي الأمر؟ في الحقيقة لا يمكنك أن تتخلص منا أبدًا، حتى لو قفزت لعالم ثالث ورابع، ستجدني أو مَن هم مثلي هناك، نحن بكل مكانٍ، لا ننتهي.

أتمالك أعصابي وأتخطى دهشتي، أرد محاولًا ترتيب الكلمات:
- يبدو أنك مخطئ يا مدحت، لا تدري ماهية العالم الذي أنت فيه. هذا عالمي. أنا من أحضرتك هنا الآن لتجربة بذهني، لا أكثر. هنا المال لا قيمة له. ما الذي سيُجبرنا على القدوم إليكم؟ لا يوجد سبب منطقي، فبالتالي وجودكم كعدمكم لا أهمية لكم.

- المال. نعم. ما تقوله لا يعد كونه أكثر من نكتةٍ سخيفةٍ، ويدل على عدم إدراكك ووعيك. يا صديقي، المال، مشكلة المال، ذلك الوهم، نحن من صنعناه، نحن من خلقنا تلك الأوراق وجعلنا قيمة البشر مرتبطة بها، وبالتالي يمكننا صناعة وهمٍ آخر، وهمٍ

يليق بعالمك المنشود. الأوهام تصنع بسهولةٍ، والبشر تتعلق بها بسهولةٍ أكثر.

يُصيبني الغضب من كلماته، أنهضُ وأرد قائلًا:
- حسنًا، لا تفرح كثيرًا بهذا الوهم. أنا أثقُ تمامًا، أن يومًا ما سينهار ذلك العالم المادي، سينهار فوق رؤوسكم ولن تجدوا من ينقذكم، ستلتهمكم الأفواه الجائعة حينئذ، لن يرحمكم أحد.
إن حدث ذلك بالفعل، فهذا معناه فناؤكم أنتم أيضًا، فأنتم جزءٌ من ذلك العالم بأي حال، إن لم تكونوا قد حضرتم نظامًا بديلًا، قادرًا على خلق نظام اجتماعي واقتصادي للعيش.
- نحن نستحق عالمًا أفضل. عالمًا إنسانيًّا. نحن البشر نستحق عالمًا آخر. عالمًا نحيا به دون خوفٍ، ألم، رعب. هذا ما سأحاول فعله إن فشل ما أخطط له.
- حاول.. إذا استطعت.
قالها مبتسمًا بهدوءٍ. أدير ظهري منصرفًا، أسيرُ نحو الشاطئ مرةً أخرى، مفكرًا فيما حدث. حسنًا، عاطف استجاب بهدوءٍ لتجربتي، لماذا مدحت تمرد؟ كيف عارض مشيئتي هنا في عالمي؟ هناك خطأ بالتأكيد، أو أنني- بدون وعي- أفقد القدرة على التحكم بعالمي. ذلك الوغد لا يتركني بسلام حتى هنا. أمممم، سيكون عاطف إذن عنصر تجربتي الوحيد. وبالرجوع

للوراء قليلًا، الآن سمعتُ صراخه جيدًا، شعرتُ بحرارة الدماء وهي تجري على يدي، مطواتي غرستها بقوةٍ، حتى أتأكد أن ذلك سيترك أثرًا أبديًّا، بالتأكيد سيترك أثرًا، حتى لو ندبة بسيطة، لا يهم، المهم أنه سيكون هناك أثرٌ بالتأكيد. وما سأفعله بعد قليل، سيكون دليلًا دامغًا، وقويًّا أن الأمر ممكن، أن هناك خيطًا يربط بين العالمين. أثق تمامًا في تلك النظرية، أن العوالم المتوازية ممكن جدًّا أن تتقاطع، فقط إذا أردنا نحن ذلك.

أصلُ إلى الشاطئ، أستلقي على الرمال بهدوءٍ، أحاول طرد مدحت وما حدث. أفكر في بيسان، في عالمي هذا، وعالمي الآخر، أفكر في حظي، في الكرة التي رماها القدر لي، القدر لاعب كرةٍ محترف، يجيد المراوغة والتسديد. منحني كرة ذهبية، وسيكون من الحمق أن أتركها تضيع مني. ولكن ماذا عن مدحت! وما قاله؟هل بالفعل لن يتركني هنا أيضًا؟

أنظر للساعة، الوقت حان، أنهضُ بنصف ظهري، أخرج مطواتي من جيبي، أفرد ذراعي الأيسر، أرفع أكمام القميص للأعلى حتى المرفق، أضع نصل المطواة على بداية معصمي، أضغط بطرف النصل للداخل قليلًا، أسحب النصل للأعلى نحو المرفق بهدوء. تنز الدماء ببطء من الخيط المشقوق. في البداية، سالت خيوط رفيعة من الدماء لتغطي الساعد كله، ومع أول قطرة امتزجت بالرمال انفجرت الدماء كالنافورة من الساعد لتصبغ الرمال

أسفلها باللون الأحمر.

الرمال تحب الدم، أدركت هذا عندما رأيتها تمتزج بدمي في سرعةٍ، أنزف، أنزف، وتتلون هي بسعادةٍ.. أمسك المطواة باليد النازفة، أضع نصلها على معصمي الأيمن، أفعل المثل، الخيط المشقوق يُلون الرمال أسفله، أنزف، أنزف، مرة أخرى.. أستلقي على ظهري، تاركًا دمائي تُعانق الرمال، أستلقي على جانبي الأيمن، أدع يدي اليسرى تُعانق اليمنى، تتحد دماؤهم، يُكوِّنان جدولًا صغيرًا على الرمال، أشعرُ بالوهن، الرؤية تتشوش، بنصف عين أرى دمائي تجري بعيدًا.

على طرف الجدول هناك، أرى نملة صغيرة، تقترب من دمائي بحذر، تمد طرفها للدماء بتشكك، تطمئن أنه ليس فخًّا، ثم تقفز بقوةٍ للجدول، تغطس وتطفو، تمتص الدم في سرعةٍ، يكبر حجمها، حتى تصير في حجمي تقريبًا، أو أقل. تنادي بصوتٍ عالٍ: "يا رفاق، تجمعوا هنا، هنا دم طازج"، أقول في وهنٍ: "دعي دمي يجري، يا نملة يا عاهرة، اتركيه يجري بعيدًا، أنا مذنب ودمائي ليست طاهرة كما تظنين".. والنملة تقف مبتسمة، تنادي بصوتٍ عالٍ: "يا رفاق، تجمَّعوا هنا، هنا دم، هنا الكثير من الدم"، أشعرُ بالوهن يزداد، ولكنني أعجبُ في نفس الوقت، النملة تتحدث ولها صوتٌ، هذا طبيعي جدًّا، ولكن الغريب أن الصوت مألوفٌ، يُذكرني بزميلي في العمل، عيناها أيضًا مألوفتان، أجمع هذه الأفكار وأنا أحاول فتح عينيَّ، الرؤية

تزدادُ تشوشًا ولكني أرى على الرغم من ذلك؛ طيف جيشٍ من النمل يقترب، يصل لجدول الدماء وتقفز، واحدة تلو الأخرى، تتضخم بسرعةٍ مع الشفط. الرؤية يلفها ضبابٌ كثيفٌ، عيناي نامتا، لا أقدر على فتحهما، لكن تصلني بعضُ الأصوات. أمممم، دمٌ طازجٌ بالفعل. وصوتٌ آخر يقول، وحار أيضًا، سيُدفئنا لفترةٍ طويلةٍ، أصواتٌ مألوفةٌ، كلها مألوفة. النمل يُحب الدم، أدركتُ هذا أخيرًا.

***

ريم

جُننت، وفقدتُ عقلي. هذا أكيدٌ وواضحٌ، كل الدلائل تشير لذلك، حتى رسالة أحمد الأخيرة، تؤكد هذا بشدة. عمر أيضًا يظن بي ذلك، هو لا يقولها صراحة، لكن تكفي نظراتُ عينيْه حتى أدرك ما يظنه بي. أنا لا أهتم بما يظن الناس، إذا كانت سعادتي متوقفة على جنوني، فأهلًا بالجنون.

كل صباح، أستيقظ وأنا مفكرة، متسائلة، حائرة، في أي جزءٍ بالتحديد من حياتي أخطأت حتى يُعاقبني الرب بأن أكون هنا. هنا بالتحديد، وسط هؤلاء البشر، وهذا المجتمع؟ وبأي ذنبٍ أُعاقب على مآسيَّ المتكررة؟ ولماذا أنا بالتحديد؟ لكن بعد التفكير، أجد أنني قد بالغتُ قليلًا، وأن الله يُكافئني هذه الأيام، ويعوِّضني عن عمري البائس، ويجعلني أهتدي لجزءٍ من

حياتي المفقودة، بفارسي الوسيم.
أنا فقط متعبة، أشعر بجسدي منهك، مهلك، لا طاقة لي لشيء.. كل شيء حولي سيئ. حياتي- الواقعية- تتأرجح بين مفردين، ما بين تعيسة وبائسة. فقط أحلامي، تمدني بالقليل من سعادة- يظن الكثير أنها وهمية- مؤقتة. أدرك الآن بعد هذا الكم من التخبط، التناقض، في الأفكار، والمشاعر. إنني بحاجةٍ ماسةٍ للذهاب لعمر، وهذا ما سأفعله اليوم، على الأغلب.

***

في المساء..
عيادة د. عمر..

- أنا آسفٌ جدًّا لما حدث يا ريم، أنت لا تستحقين ذلك، لكن لو نظرتِ للأمور من منظورٍ آخر، منظورٍ واقعي، فستجدين أنه من الجيد أنك اكتشفتِ خيانته قبل الزواج، أو أن يكون هناك أي شيء رسمي.
- ربما معك حق.. ما حدث قد حدث، ولا فائدة من الندم الآن. لكنه يصر على ملاحقتي، أرسل لي أمس إيميلًا بعنوان (الرسالة الأخيرة)، يُفسر بها ما حدث، تفسيراتٌ واهيةٌ وضعيفةٌ، لا تُقنع طفلًا صغيرًا، ومن المفترض أن أصدقها وأسامحه. هو يظن أنني غبية، أدرك هذا، وأشعر بالإهانة من هذا. انظر لقد طبعت لك

الرسالة لتلقي نظرة عليها.

***

الرسالة الأخيرة

"ريم، حبيبتي، أعدك أن هذه آخر رسالة مني، وأنني لن أحاول مضايقتك مرة أخرى، وعليكِ يا عزيزتي أن تسألي نفسك: لمَ أنا أحاول جاهدًا الوصول إليك، لأفسر لكِ ما حدث؟ إذا كنتِ لا تعنيني كما تظنين، أو لا أحبك، ما كنت سأحاول أن أفعل هذا، فقط فكري في هذا!

أولًا، وقبل أي شيء، يجب أن أعترف أنني مخطئ، كليًا مُخطئ، في أنني أخفيت عليكِ مقابلتي مع دينا، لكن الأمر فعلًا ليس كما تظنين.

في الفترة الأخيرة، قد لاحظت عليكِ بعض الاضطرابات النفسية، عقلك مشوشٌ دائمًا، كثيرة السرحان، أحلامك التي تطاردك، حتى إنك قلتِ لي إنكِ زرتِ طبيبًا نفسيًا بالفعل، لكني بالفعل كنتُ قلقًا جدًا عليكِ، والأمرُ ظل برأسي فترة، أقلبه يمينًا ويسارًا، حتى اهتديت إلى أنه يجب أن أستشير طبيبًا نفسيًا محترفًا بدون علمك، أولًا حتى لا تظنين أني أعتقد أنك مريضة بالفعل.. ثانيًا، حتى يشرح لي الطبيب باستفاضةٍ وبدون إحراجٍ طبيعة مرضك وطرق التعامل معه.. وبعد جلوسي مع الطبيب،

اكتشفتُ أنني لا أعرف عن ماضيكِ سوى القليلِ جدًّا، وأنني بحاجة للتحدث مع شخصٍ يعرفك جيدًا، ولم أجد شخصًا أقرب إليكِ سوى دينا بحكم تربيتها معكِ، وبالفعل سعيتُ للتواصل مع دينا، وشرحتُ لها الموضوع مع وعدٍ منها بكتمان الأمر، حتى خالتك لا تعرف عن الموضوع شيئًا، جلستُ مع دينا عدة مراتٍ لتحكي لي عنك، وعن ماضيك، كنتُ أريد أن أنقل الصورة كاملة للطبيب.. هذه هي الحقيقة كلها، أقسم لكِ.

ريم، أنا أحبك حقًّا، ولا أريد أن أتخلى عنك، خصوصًا وأنتِ بهذه الظروف، من فضلك يا ريم، لا تضيعي كل شيء في لحظة تهور وعدم تفكير، سأنتظر ردك.

حبيبك: أحمد"

- أشعر بالصدق في كلماته يا ريم، محاولته الجادة لشرح الأمر لكِ، وتوضيح الصورة، أعتقد أنها نابعةٌ من نية حسنة، وأنه فعلًا لا يريد أن يخسرك.. لكن لماذا لم يذكر ما قاله الطبيب له؟

- لا أهتم حقًّا، أنا لا أصدق أي كلمة من هذا، دعك منه، أنا لست هنا اليوم لأتحدث عن أحمد، لكن ما جئت من أجله، هو ذلك الوسيم، من أحلامي. الأمور تتطور بشكلٍ غريبٍ ومُريبٍ، ولا أفهم ما يحدث لي.

- لماذا؟ هل هناك جديد؟ كلي آذان مُصغية، تفضلي!

تنهيدة عميقة، وثوانٍ من الصمت:

- أولًا يا عمر، شعوري تجاه ذلك الوسيم يزدادُ كل صباح بعد أي حلمٍ جميل. أدمنتُ أحلامي يا عمر، لا أريد أن أصحو. سعادتي في نومي، أتصدق هذا؟ لكن سأحكي لك حُلمًا غريبًا تكرر مرتين: أقف في المنتصف تمامًا منه، بجانب الأحلام السعيدة، يظهر ذلك كحلمٍ غريبٍ شاذ. يبدأ الحلم وأنا جالسة على كرسي جميل على قمة جبل، لا أعرف أين ذلك الجبل، لكنه شاهقُ الارتفاع. أجلسُ أنا على قمته. أسند رأسي على ظهر الكرسي وأستلقي، تتخللني أشعة الشمس، لأن الوقت يكون صباحًا دائمًا، في المرتين.. ألبس فستانًا ورديًا، وأداعبُ بقدمي بعض الحصى على قمة الجبل؛ وبينما أنا كذلك أشاهد عصفورًا جميلًا يأتي إليَّ، يحط على رجلي ويُداعبني، يأسرني ذلك العصفورُ، ثم فجأةً يطيرُ مبتعدًا، أقوم وراءه محاولة الإمساك به، يبتعد أكثر، وأنا أركض وراءه، حتى أجد نفسي فجأة أهوي، بعد وصولي للحافة. أصرخ، وأشعر بأن قلبي توقف، يُصيبني الرعب يا عمر، أكثر لحظات الحلم رعبًا، أشعر بالرمال والحصى تضرب وجهي وأنا أهوي، حتى قرب السطح، أغمض عينيَّ وأصلي في سري، فليغفر الرب لي، وأستعد للارتطام، فأجدني أقع بين أحضان فارسي الوسيم، أجده يتلقفني بسهولةٍ بين ذراعيْه، وبعد موتٍ قصير، ترتد روحي إليَّ، أبتسم وأدفن رأسي في حضنه، يبتسم لي هو الآخر ويقول: حبيبتي، أريد أن أراكِ، فأرد: نحن معًا بالفعل..

فيقول: لا، ليس بعد.. وينتهي الحلم على ذلك فأصحو، وأنا لا أفهم ولا أعرف، وبداخلي مشاعر مختلطة.. ما رأيك يا عمر؟

- اه .. الحلم واضحٌ جدًّا على فكرة يا ريم، مباشر وصريح، حتى إنني أتعجب كيف لم تفهميه، ما حدث لكِ مع أحمد، وما مررتِ به بعدها من مشاعر، شكل مادة ثرية جدًّا لأحلامك. يعني، بدون إطالة، أنت تجلسين فوق قمة جبل، وهذه هي المكانة التي تضعين نفسك فيها بعد تجربة حبك السابقة، عزلتِ نفسك عن الناس، وصعدتِ لقمة ذلك الجبل، جاء ذلك العصفورُ الجميلُ وأخذ يُداعبك، بالطبع ذلك العصفور ما هو إلا رمزٌ لأحمد، الذي استطاع أن يجذبك إليه، وارتبطتِ به، لكن ذلك الارتباط، وتلك العلاقة- من وجهة نظرك- جعلتك تتركين مكانك من القمة وتهوين لأسفل بقوةٍ، أنتِ تعتقدين أن تلك العلاقة، سحبتك من مكانتك العالية للأسفل، أنت تضعين أحمد في مكانةٍ سفلى بين البشر الآن، وهذا طبعًا مبني على اعتقادك أنه خائن. أما عن فارسك الذي كان ينتظرك لينقذك من السقوط، فهذا ما تتمنينه يا ريم، ما يريده عقلك وقلبك، قلبك يريد رجلًا تكونين معه واثقة بأنك إذا قفزتِ من فوق قمة جبل، سيكون هو بانتظارك بالأسفل لينقذك.. الحلم واضحٌ جدًّا يا ريم.

- طيب، وما معنى أريد أن أراكِ؟ ونحن معًا بالفعل بالحلم؟ كيف يريد أن يراني؟

- اه، هذا ما لا أفهمه فعلا حتى الآن. ولكن مبدئيًا، على الأرجح، إن هذا ما يريده قلبك أيضًا، أنتِ تريدين رؤية هذا الفارس هنا، بمعنى هنا، في الواقع.

بعد كل جلسةٍ، تزدادُ حيرتي أكثر، عمر يؤكد لي بطريقٍ غير مباشر وصريح، أنني مريضةٌ نفسيًا بالفعل، وأن كل ما يحدث من نسجِ خيالي، وأنا أتعجب حقًّا، أن يكون لديَّ خيالٌ ثري ومُبدع بهذا الشكل، لكن لدي ثقة لا أبوح بها، أن ما يحدث لي غير طبيعي. أعذر عمر، فهو طبيبٌ وهذا عمله، يُحاول أن يضع كل الأمور تحت تشخيصٍ نفسي وعلمي، لا أستطيع أن ألومه، لكن كانت لديَّ رغبة دفينة أن يصدقني، لماذا لا يتفهم تلك الرغبة؟ كل الأمور يرجعها لرغباتي الداخلية، لماذا لا يتفهم تلك الرغبة إذن؟ وربما يتفهم، لكن لا يريد أن يُجامل في العمل، أو يعتقد أن هذا خطأ، وسيزيد من انخراطي في المرض. الآن أصبحتُ أتكلم مثله، أحلل، وأفسر، إنني أعجب حقًّا، كيف يكون لدي كل هذا الوعي وأكون مريضة؟ أووه، يا الله، ارحمني من عقلي.

***

صفحات مُقتطعة من مذكرات د. عمر
٢٠ مارس ٢٠١٦

من البداية، وأنا أدركُ خطورة وخطأ، وضع عمر المُحب بالصورة. وأن ضميري المهني يُحتم عليَّ أن أتصرف، أتكلم، أحكم، كطبيب. طبيب فقط ولا غير. وهذا ما كنتُ أتوقع فعله بسهولة، خاصة وأنا طبيب نفسي، التحكم بمشاعري، تعابير وجهي، حركة جسمي، سيكون يسيرًا جدًّا. غير أن هذا صعبٌ جدًّا مع ريم، أنتم لا تُدركون كيف يكون الأمر معها، كيف تزدادُ سرعة ضربات قلبي، وترتفع حرارةُ جسدي كمريض حُمى، المحبون فقط سيفهمون ما أعني؛ بحضرة ريم، أتوه، وتتوه كل أحرف كلماتي، لا تتصورون مدى الجهد المبذول لتخرج كلماتي معها في صورةٍ رصينةٍ غير متوترةٍ. أن أحتفظ بتعابير وجهي ثابتة، بينما قلبي يتراقص بالداخل. غير أنني أيضًا لم أستطع اليوم أن أخفي سعادتي، بما سمعته منها، بعد أن أزيح من طريقي خطيبها، خَصْمي الواقعي، على الرغم مما سبب لها ذلك من ألم، فإنني سأكون كاذبًا إذا قلت لكم إنني غير سعيد. لا أشعر بالذنب، تجاه ذلك الشعور، قد تكون تلك أنانية مني، لكن أنا بالفعل سعيدٌ ولا أخفي ذلك.

اليوم كنتُ في حيرةٍ، بعد أن قرأتُ رسالة خطيبها، تأكدت من صدقه تمامًا، أحمد لم يخنها كما تظن هي، الرسالة توضح ذلك. في الحقيقة لا أعلم أيضًا أي معتوهٍ يمكنه أن يخون ذلك الملاك،

لذلك أنا أثق في رسالة أحمد، وأثق فيما قاله، وطوال الرسالة، الحيرة تضرب قلبي، هل أقول لها إن أحمد صادق في كلماته، أم المفترض أنها فرصة جيدة للتخلص منه نهائيًّا، وأنصحها بعدم تصديقه، تصارع عمر العاشق والطبيب بداخلي، وفي النهاية انتصر الطبيب، وصارحتها بما أشعر، وتركت لها القرار، لكن ريم فقدت الثقة بكل الرجال بالفعل، هذا كان واضحًا جدًّا من قرارها اليوم.

حسنًا، لندع عمر العاشق جانبًا، ونتكلم قليلًا من منظورٍ طبي. حالة ريم تُصيبني بالحيرة. حلمها الأخير طبيعي، لا غرابة به، ومتوقع جدًّا خاصة بعد ما حدث، لكن ذلك الشخص الذي يطلب رؤيتها، هو ما يُصيبني بالحيرة، لديَّ أفكارٌ كثيرةٌ تدورُ الآن. لكن أيضًا لا يمكنني الحكم الآن. أثق أن قريبًا جدًّا سأصل لحل كل هذا، أتمنى ذلك.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٧

سمعت أن «سالم» المجنون بدأ في قصة جديدة، عن «يهوذا» و«دافنشي» ولوحة العشاء الأخير، بعدما فشل في تكملة قصة نبيه العاري، بعدما وقف النبي وسط الجزيرة ورفض أن يتحرك قائلًا له: يا «سالم» يا مجنون، أنت لا تقدر على نبي، اكتب قصة أخرى عن أي صعلوك وإلا جززت رأسك بذلك المنجل. ضرب الرعب قلب «سالم»، ومزّق ما كتبه سريعًا. هاها، مسكين «سالم». فكتب عن «يهوذا» و«دافنشي»، وكيف أن «دافنشي» حبس روح «يهوذا» في لوحة العشاء الأخير، بعدما استحضرها، ليجعل عذابه أبديًّا، لم يتحمل نظرات المسيح له، فحاول الفرار، ونجح أكثر من مرة، ولكن مع كل صباح، كان يصحو يجد نفسه قد عاد مرة أخرى للوحة. مسكين «يهوذا»، لا يرحمه أحد. يا «سالم»، أنت فاشل، لن تكمل قصة واحدة، ما لك و«يهوذا» و«دافنشي»؟ اكتب عن كاتب فاشل مثلك، شخصياته تصفعه على قفاه، وتهرب منه، هاها.

نرجع لروايتنا اللذيذة..

يا «نزار»، ارحمني يا أخي، تريد حبسنا؟ الرأسمالية أكلت دماغك، أنا أحاول كتابة رواية حالمة، وعقلك الباطن يفسد الأمر عليّ، فيقفز بـ«مدحت» وفلسفته، وذلك الكلام الفارغ عن المال والوهم والنظام البديل، العالم لن يتغير، اترك أم العالم الذي انتشلتك منه. فعلًا، الفقر له ناسه.

وأنتِ يا «ريم»، «أحمد» لم يخُنْكِ يا مجنونة، لكن دوره انتهى هنا، كان يجب أن أبعده، له دور بسيط في النهاية، لكن حتى هنا شكرًا، أيضًا حتى يخلو الجو للنحنوح «عمر». هاها. حالتك صعبة يا «ريم»، أعرف، لكن سأرضيكِ في النهاية يا حلوة، ولكن ليس بفارسك الوسيم، سأكون تقليديًّا جدًّا يا «ريم» إذا جمعتك معه فقط، أين البوووم؟ هانت يا حلوة

وأنت يا «عمر»، الطريق خالٍ الآن؟ ها؟ ركلت «أحمد» من طريقك، تفكر في سحبها للسرير من الآن؟ صحيح؟ قلت لك: لن أجعلك تنال ذلك، هاها، لن تطول قبلة حتى، ولكن سأجمعك معها في شقتها، أرِني ماذا ستفعل يا فلحوس.

نزار

ظلامٌ.. أغرقُ في ظلامٍ تام. كل شيء حولي أسود. الحُلم انتهى. أعلم هذا، آخر ما أذكره، جيش من النمل، يمتص دمائي، لماذا لم أعد لواقعي بعد؟ هل هذا موت؟ هل الموت أسود ومظلم هكذا؟ أشعر بشللٍ تام بكل جسدي، لا أستطيع تحريك أي من أطرافي، هل أنا بالمنطقة الرمادية ما بين الموت والحياة؟ مجرد روح تائهة في العدم؟ روح بدون جسد، إذا كنتُ لا أشعر بجسدي، فمن الوارد جدًّا عدم وجوده بالأصل.

يصلُ فجأةً إلى مسامعي صوت، صوت ضعيف لكن يظل صوتًا، يُشبه خفقان القلب، أو أنه خفقان القلب بالفعل، ثم تتتابع الأصوات في سرعة، أنفاس منهكة، انبعاج قماش وسادة يتحرك رأس عليه ببطء، هذا في الأغلب رأسي. أدرك أني عدتُ لوعيي، لكن حتى الآن لم أفتح عيني، أشعر بثقلٍ غريبٍ. تتوالى الأصواتُ، منبه موبايل، أبواق سيارات بعيدة، أحاول مرةً أخرى فتحها، أنجح بصعوبةٍ، أجفاني ثقيلة، لكن مفتوحة الآن. أشعر بالآلام في فقرات ظهري، وذراعي أيضًا. أقوم بصعوبةٍ، أجلس بنصف جسدي على السرير، أمدُّ ذراعيَّ للأمام، أمدهما بصعوبةٍ بسبب الألم، أفحصهما جيدًا، لا شيء، لا جروح، أو ندوب. أفحصهما مرةً أخرى، أبحث عن أي أثر، أي ندبة بسيطة، نزفت كثيرًا، أشعر بالوهن من ذلك، من أين خرجت تلك الدماء إذن؟ لا أجد شيئًا، ولا حتى جرحًا صغيرًا

يشفي قلبي. من أين كل ذلك الألم إذن؟ ذراعاي يؤلمانني كمن كانا تحت الطرق طوال الليل. أزيح وسادتي، أنظر تحتها، لا شيء، لا أحجار، أي أحجار. درج المكتب، جيب الجاكيت الأسود، حقيبة العمل، لا شيء أيضًا، يُصيبني اليأسُ قليلًا، أتذكر الرسالة، أرجع للمكتب مرةً أخرى، أبحثُ بين الأوراق، كل الأوراق، أبحثُ جيدًا، لا شيء.

أشعر بالإحباط الشديد. بجانب الألم يغرقني اليأس. فكل ما حولي يشير بوضوح، وبدون أدنى فرصة للشك، إلى فشل التجربة، لا جروح، لا أحجار، لا رسالة، لا شيء إطلاقًا. إلا ذلك الألم من ذراعي يمنحني نسمة بسيطة من الأمل، إذا كان هناك ألم، فبالتأكيد قد أصاب تلك الأذرع شيء نتج عنه ذلك الألم. أبتسم لذلك الاستنتاج. أخرج من الشقة، وأصعد للطابق الأعلى. أقف أمام شقة عاطف، أطرق الباب بهدوءٍ يُخالف دقات قلبي المُنفعلة، يُفتح الباب بعد فترة، يطل عاطف منه بوجهٍ ناعسٍ مُندهشٍ.

- صباح الخير أستاذ نزار... هل حدث شيء ما؟ سيارتي بها شيء؟

- لا، لا شيء، لا تقلق، سيارتك سليمة وبخير، فقط أردت أن أقول لك شيئًا.

- تفضل!

- أمممم، هل... هل الأمور بخير معك؟

رأيتُ ملامح جاري تتغير، يعتليها نوعٌ من الغضب، لكنه حاول السيطرة عليها وهو يرد:

- أي أمور؟

- يعني ..الأمور، كل الأمور، أنت تعرف كل منا لديه أمور، أحيانًا تكون بخير، أحيانًا كثيرة لا، لا شيء مستقر هنا، أنت تعرف هذا.

- ااه، طيب، الأمور كلها بخير، أشكرك.

- وكيف حال يدك اليمنى، بخير أيضًا؟

بدأ صبر عاطف ينفد، واحتلت العصبية نبرته وهو يرد:

- ما بال يدي؟ ولماذا لن تكون بخير؟

- لا شيء، أنا فقط أسأل، أنت تعرف أنه من الجيد أحيانًا أن نطمئن على أيادي بعضنا؛ انظر، أنا لا أشعر بخير مثلًا بيدي الآن.

هنا، انفجر عاطف في وجهي، قال والرذاذ يتطاير من فمه:

- هل أنت سكران أو شيء؟!! اسمع يا ولد، أنا أعرف جيدًا أنك بني آدم سكير، وبتحب النسوان، لذلك زوجتك تركتك، فلو هذه إحدى نوبات سكرك، فاذهب مارسها بعيدًا عن هنا، أنا ليس لديَّ وقت لهذا العبث.

- سكير؟ انا؟ فعلًا لديَّ هذه السمعة؟ حسنًا اسمعني من فضلك، أنا بخير ولست سكران كما تظن، أنا فقط رأيت حلمًا

سيئًا بخصوص يدك، وأردتُ الاطمئنان عليك، ليس أكثر.
- حلم؟ أنت توقظني في الثامنة صباحًا، وتُقلق راحتي، وتقف هنا تحدثني عن تفاهات، كل هذا بسبب حلم؟ حسنًا، اطمئن، أنا بخير، والأمور بخير، ويدي بخير أيضًا؛ انظر، ها هي ذي يدي، بخيرٍ تمامًا، هل انتهيت الآن؟
- نعم. انتهيت، أشكرك.

أدورُ حول نفسي، وأقطع درجات السلم مهرولًا، أراها تنسحبُ من تحت قدميَّ في سرعةٍ، درجات ذلك السلم تُشبه روحي كثيرًا، قديمة، وبالية، والكل يدهسها، أشعر بروحي كذلك الآن. أصلُ لمدخل البناية، أفتشُ عن الأحجار بيأسٍ. لا أجد شيئًا كما توقعت. أدورُ حول البناية. أبحثُ عن أي أحجارٍ مُلونةٍ. لا أجد سوى ترابٍ، مخلفات قمامة، آمال مُقطعة وملقاة جانبًا. أجُرُّ نفسي جرًّا حتى البنك، تستقبلني وجوهٌ عابسةٌ، تعزز المشاعر السلبية لديَّ، أطرق باب مكتب مدحت بهدوء، وأدخل، يستقبلني بابتسامةٍ هادئةٍ قائلًا:
- صباح الخير يا نزار، ما لك؟ شكلك تعبان جدًّا.
- اه والله، هذه الأيام لا أنام، المهم، قل لي انت بخير؟
- في أفضل حال، شكرًا. اسمع، جيد جدا أنك أتيت، كنتُ أنوي طلبك اليوم على كل حال، لدينا مشاكل هذا الشهر، لم نُحقق "التارجت" المطلوب، هل تقدر على فعل شيء تجاه هذا؟

- اه اه أقدر، لكن أود أن أطمئن عليك، هل أنت بخير فعلًا؟ لا أعرف، أشعر أن رقبتك تميل قليلًا إلى اليمين، هل تؤلمك؟

- رقبتي؟ لا لا، رقبتي بخير، ممكن أحس بالصداع قليلًا، لم أشرب قهوتي بعد.

- ربما تشعر بالصداع، والقليل من الألم بيدك، معدتك. ربما تشعر بإنهاك بكامل جسدك؟

- ما لك يا نزار؟ لماذا يبدو كلامك غريبًا وغير مفهوم اليوم؟ أنت مريضٌ؟

- نعم بالضبط، في الحقيقة أنا مريضٌ جدًّا، ومُنهك، وعقلي مُجهدٌ جدًّا، وأمر بحالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ، أحتاج لإجازةٍ طويلةٍ من فضلك.

- أنا أحدثك عن تأخر في معدل العمل، وأنت تُحدثنى عن إجازة؟ حسنًا، ستأخذ إجازتك المطلوبة بعد أن تجد حلولًا لوضعنا الحالي، إن لم تجد، فلا إجازة. تستطيع الذهاب إلى مكتبك الآن، تفضل!

أخرجُ وأنا أجرُّ خلفي خيوط فشلي، أجلسُ على مكتبي أُلملمها بإحباطٍ، تجربتي فشلت تمامًا، أستطيع قول ذلك الآن. وذلك الخيط الوهمي بين العالميْن تلاشى تمامًا الآن من أمامي، لا أرى سوى الخواء، الخواء فقط.

في المساء

أويتُ إلى فراشي مبكرًا، حتى أتمكن من النوم فترةً طويلةً. بيدي اليمنى يربض كيسٌ جديدٌ من الدفعة التي جلبتها اليوم، وباليسرى ثلاث حبوب منومة قوية المفعول. أرحتُ يدي جانبًا، أرحتُ رأسي وأغمضت عيني، حاولت استرجاع أحداث اليوم بذهني، تفاصيل لقائي مع فريد، أجده محقًّا بعض الشيء فيما قاله، لماذا أفعل هذا بنفسي؟ لماذا لا أستمع إلى كل من يُحذرني، كما أنوي أن أفعل الليلة، حذرني فريد من أي محاولةٍ لإطالة وقت الحُلم، لكن ما من الممكن أن يحدث؟ لن أعرف حتى أرى بالتأكيد.

بعد انتهاء يومي بالبنك، ذهبتُ مباشرةً لفريد بعيادته، حتى أجلب دفعة أكياس جديدة، وأبحثُ معه عن حل لحالتي، حكيتُ له كل ما حدث معي، كل التفاصيل، عن بيسان، عن محاولتي لجلبها لعالمي، عن فشل تجربتي، كنت أريد حلًّا، بأي شكلٍ.

- يبدو أنها كانت مُحقة.
- مَن هي المُحقة يا دكتور؟
- زوجتي يا نزار، كان عندها حق، وأنا لم أفهم هذا.

- فريد، وضِّح أكثر، ما دخل زوجتك بموضوعنا؟
- أوكي، اسمع، زوجتي الحبيبة، عندها نظرية تُخالفني تمامًا، وعبثًا حاولتُ إقناعها، غير أنها كانت متمسكةً بما تؤمن به. تلك المادة كانت فرصة جيدة لإثبات خطئها، لكن الأيام تثبت لي الآن أنني كنتُ مخطئًا، فما تحاول فعله أنت الآن، وما يُحاول فعله الآخرون يقول ذلك.
- وما تلك النظرية؟
- أوكي، زوجتي لا تتناول مورفيس، زوجتي سيورانية مخلصة، تتبع أفكار سيوران، ونظريتها تتلخص في أن الحياه شر، وأن الألم والتعاسة هما الحياة نفسها، وأن الإنسان في حالةٍ دائمةٍ من تأنيب الضمير، والرغبة في الشعور بالذنب، واللذة في امتلاك الهمِّ، ورؤية سواد أكبر مما هو واقع. ومتى حضرت السعادة للإنسان سيتركها ليُفتش عن تعاسته الخاصة. فالإنسان- كل إنسان- لا يستطيع العيش بدون ألمٍ، شيء يجثم على صدره، يمنحه الشعور المُمتع الناتج عن الوجع والقهر، شيء يحيل ليله جحيمًا من الأفكار، ونهاره قلبًا مقبوضًا، ورأسًا متصدعًا. وإن البشر، إذا أرادوا، يمكنهم خلق السعادة بسهولةٍ، بدون مورفيس، أو أي شيء. فالفقير المُعدم يُمكن أن يجد سعادته- إذا أراد- في ابتسامة طفله. والغني العقيم يُمكن أن يجدها في فرحة طفل أنقذه بماله. لكن البشر لا يريدون ذلك. وطبعًا، أنا لا أوافقها هذا الرأي.

- اعذرني يا فريد، لكن نظرية زوجتك خاطئة كليًّا، ويبدو أنها تأخذ قشور الأفكار، أو تقرأ الكثير من كتب التنمية البشرية.. الواقع مغاير. هل هكذا تُورد الإبل يا فريد؟ فمثلًا هذا الفقير المُعدم، كيف سيكون ابنه مبتسمًا بالأصل وهو لم يوفر له طعامًا، وملبسًا، ولُعبًا، على ماذا سيبتسم هذا الطفل؟ سيكون أبلهًا إذا فعل.
- أنا معك، هي خطأ، لكن أنت تسير على نظريتها وتحققها الآن. تبحث عن وهمٍ. خلقت شخصية وهمية وتريد جلبها لواقعك، وهذا علميًّا مستحيل. أه ممكن جدًّا، أن تكون بيسان لها شبيهة بالواقع، لكنها ليست هي، وبالتأكيد ليست اسمها بيسان، ليست هي يا نزار. أنت تعيش قصة حب جميلة، صح؟ لماذا إذن تريد تدمير تلك الأحلام الجميلة؟ لماذا تبحث عن وهم؟
- لا، أنت لا تفهمني يا فريد، أنا لا أحاول تدميرها، أنا أحاول جعلها دائمة، وليست لحظية. أنا أثق أني سأنجح، سأثبت خطأك أنت وزوجتك. إذا استطعت أنت أن تخلق مدخلًا لعوالم موازيةٍ لنا، سأستطيعُ أنا أن أثبت أي عالم يمكن أن يتأثر بآخر، فقط إذا أردنا نحن.. سترى.
ابتلعت الثلاث حبوب، فتحت الكيس الجديد، سكبت، سطرت، وسحبت.

"بالطبع هناك إله"

قلتُ ذلك عندما أغلقت تلك الرواية، كنتُ بدأتُ قراءتها منذ فترةٍ، وتم تأجيلها أكثر من مرةٍ، نظرًا لظروفي. "بالطبع هناك إله". يبدو تمامًا أن الكاتبة ملحدة، وأنها تُحاول جاهدة ترسيخ معتقداتها بين صفحات الرواية، فأصطدم بعبارات مثل: "نحن أبناء الطبيعة"، "سنفنى مع فناء الكون"، "إذا كان هناك شيء من المفترض أن يُعبد فهي تلك الطبيعة وهذا الكون"، "الإنسان خطيئة هذا الكون".. لا أفهم ما ترمي إليه، وما المفترض أن أتوصل إليه بعد القراءة.

أنا أحب الكتب، بل أعشقها، والكتب تحب الوحدة. لذلك أجدني دائمًا أهرب، من التجمعات، العائلة، الأصدقاء، أهرب لأرتمي بين صفحات كتاب. أي كتاب، أهرب إليه، يحتويني، أشعر بصفحاته تضمني، فأترك نفسي لأذوب بين تفاصيله. عقلي خاوٍ جدًّا، نادر الذكريات، فأشعر بالواجب نحوه، فأصنع له تفاصيل وذكرياتٍ من بين صفحات الكتب، فأتألم مع البطلة مفطورة القلب مثلي، وأصبُّ لعنتي على الذكر الخائن في الرواية، فأجدني أكرهه كما أكره أحمد وسليم. ويظل أثره في ذاكرتي طويلًا، وبالعكس تمامًا عندما أجد بطل الرواية حنونًا

ورومانسيًا، أحبه كما أحب فارسي الوسيم. نعم أنا أعترف الآن، لقد انتهى الأمر، ووقعت في حب ذلك الشبح، لقد انتهى الأمر، لا مفر من ذلك الحب. وفي الحقيقة، أنا لا أود أن أفر.

لا أود أن أفر، لأنني مُتعبة، مُنهكة، وحيدة. كقطةٍ صغيرةٍ تركتها أمها في شارعٍ مُقفر بليلةٍ ممطرةٍ وذهبت. كما فعلت أمي، رغمًا عنها، أعلم ذلك، ولكن مع ذلك، تظل الحقيقة كما هي لا تتغير، فهي بالفعل تركتني دون أن تقول لي كيف أواجه البشر مَن حولي، دون أن تأذن لي حتى برؤيتها مرةً أخيرةً؛ تركتني هكذا، دون إنذار، أو كلمة. لقد تعبت جدًا يا أمي. ضائعة من دونك أنت وأبي. ليس سهلًا على الإطلاق، أن أستيقظ كل صباح، وأنا أدرك أنني وحيدة. صباحاتي كئيبة، لذلك أهرب دائمًا للنوم، أخاف من كل صباح، من كل خيط نور يقتحم نافذة غرفتي. الصباح يمثل لي، يومًا جديدًا من البشر، الضوضاء، الألم، الغدر، والكثير من الغدر. أكرهه بحق. أما الليل، فوحيدٌ مثلي، نجلسُ أنا وهو نتسامر ونتحاكى، أحكي له أحزاني، ويحدثني هو عن عاشقٍ آخر ساهر يطلب وصاله، وعن أخرى لا تنام بسبب وجعٍ أيضًا، فأتركه يذهب إليهم، وأنام أنا بهدوءٍ وسعادةٍ.

***

منذ فترةٍ، والأمرُ يُشغل بالي، وأفكر جديًا. منذ فترةٍ، وأنا أود أن أجرب، ولو لمرةٍ واحدةٍ على الأقل، تلك المخدرات. أود تجربتها حقًا، الانتشاء بعالمها المخلوق، بالتأكيد سيكون أفضل من الواقع، أن أنثر تلك المادة على ظهر يدي، وأقرب أنفي إليها، وأشد بقوةٍ، فيغرقني بياضها، وأنتشي بسحرها، وأفرُّ بعيدًا، بعيدًا جدًا، لعالمٍ لا أنتمي إليه. أجدُ الأمرَ مثيرًا حقًا، كما أن الأمر يستحق التجربة، أن تكون دائمًا بحاجةٍ لشيء، لا يخذلك عندما تلجأ إليه، يخفف ذلك الطرق المستمر برأسك، يسحبك من الزمان للازمان، وينقلك من مكانك لمكانٍ ببعدٍ آخر لا ينتمي لهنا، المخدرات جيدة، كما أنها تقضي على الحياة بيسر، أعتقد أن أيًا من ضحاياها، إذا بعث مرة أخرى، سيكون ممتنًا جدًا لتلك الجرعة الزائدة التي أودت به.

ولكني أخاف الإدمان، ليس الإدمان تحديدًا ما أخافه، ولكن تلك الصورة المزرية للمدمنين، سواد ما تحت العين، صداع مزمن بالرأس، الهرش بالجسد. أود تجربتها بقدرٍ صغيرٍ، قدر يسمح لي بالولوج لعالمها السحري دون إدمانها، أنا الآن لديَّ عالمان. عالم فردوسي أحيا به مع فارسي، وعالم واقعي رتيب ممل، لا متعة به. أنا أريد تدمير ذلك الواقع، لا أحتمل البقاء به، حتى سويعات قليلة، لا أحتمل. أعتقد القليل من الهيروين أو الأفيون لن يضر، لا أعرف الفرق بينهما تحديدًا، لكن الهيروين وقع اسمه أقوى، وقع سحره على الأذن أقوى. أعتقد

الأفيون ذكوريًا أكثر، وأنا أكره كل ما هو ذكوري، من المفترض أن أبدأ بكم جرام حتى لا أدمن، أعتقد أنه ربما إذا كان من المفترض أن أتناوله فيجب أن يكون ذلك تحت إشراف طبيب، ربما عمر سيفيدني بهذا الشأن، ربما عليَّ سؤاله، أعتقد هذا ما سأفعله.

***

صفحات مُقتطعة من مذكرات د. عمر
٢٨ مارس ٢٠١٦

"أولانزابين" و"باروكسيتين". بدأت اليوم كورس علاج بالأدوية مع ريم، الأمر يتطورُ ويحتاج لتلك الأدوية ضروري، الأول مضاد للذهان والثاني مضاد للاكتئاب والذي يعمل على زيادة نسبة السيريتونين في الجهاز العصبي المعروف بتأثيره المُحسن للمزاج، أفكر أيضًا في إعطائها "هالوبردول" ولكن ليس الآن، ربما الأيام القادمة، قررت أبدأ بتلك الأدوية، قررتُ ذلك عندما باحت لي برغبتها بتجربة المخدرات، حتى تبتعد عن عالم الوعي أثناء الوعي. هي لا مشكلة لديها بالنوم، هي تعشق ذلك العالم الوهمي، ومن المفترض أنها تتعالج منه، ذلك العالم تحوَّل من مرضٍ لديها لحُلمٍ جميلٍ تتمنى الحلم به كل يوم، واليوم جاءت تشكي لي عالمها الآخر، واقعها الفعلي، لا تريده، تريد أن تكون لا واعية بواقعها، لذلك تفكر بجديةٍ بالمخدرات. بالطبع حذرتها بشدة، هذا سيُسبب الإدمان، و تزداد مشاكلها النفسية، وسيسحبنا لمناطق أكثر خطورة، سيدمر حياتها الصحية، والعملية، والنفسية، وعلاجه ليس بتلك السهولة.. علاجه من أكثر الأشياء صعوبة، فالمدمنُ هش الإرادة غالبًا، لذلك اتجه للإدمان بالأساس، والعلاج منه يحتاج لإرادة صُلبة، فالعلاج مع إرادة هشة، دائمًا ما يُعطي نتيجة سلبية. حاولت أن أشرح لها ذلك، كل الأضرار، والنتائج التي

من الممكن أن نصل إليها إذا حدث هذا.
الأمرُ يتطور مع ريم، وستحتاج إلى جلساتٍ مكثفةٍ، طلبت منها أن تأتي ثلاث مرات بالأسبوع، حتى أتمكن من متابعتها جيدًا، وألاحظ أي تغيير من الممكن أن يطرأ عليها، إذا لم تستمع إليَّ وتقرر أن تتناول شيئًا.. أفعل ذلك بواجبي المهني، والعاطفي أيضًا، ريم يهمني أمرها جدًّا، ولن أتركها بأي حالٍ لبراثن الإدمان، لن أتخلى عنها تحت أي ظروف، الأمرُ تعدَّى معي أنني طبيبٌ وهي حالة، هي بالتأكيد ليست مجرد حالةٍ، أشعر أنني مسئولٌ عنها، مسئولية كاملة، أشعرُ نحوها بالكثير من المشاعر، والتي لا يمكن تفسيرها وتحليلها بسهولةٍ. الأمرُ تعدَّى الحب، لا أدري ما هي المراحل التي تلي الحب، ولكنني في المرتبة العليا منه. أقف على القمة تمامًا. أمسك بحبلٍ طويلٍ، يتدلى لأسفل، تتعلق به ريم، وأنا أسحبها إليَّ بهدوء، ستصل حتمًا إليَّ، لتلك المرتبة معي، تقف بجانبي على القمة، ننظر للعالم من أعلى، ومن تلك المرتبة، ومن تلك المكانة، سأجعلها تبصق، على العالم بالأسفل، ثم ترتمي بحضني، سأجعلها سعيدة، سأعيشُ لذلك فقط، أعدك يا ريم، أعدك بذلك.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٨

أضحكني «عاطف»، هاها، وهو يلوِّح بيده في الهواء في وجهك يا «نزار»، هو جار سمج، أعلم، كان يستحق ساطورًا وليس مجرد مطواة، ولكن ليس هكذا تربط بين العوالم يا صديقي، ولكن محاولة جيدة، أيضًا شفيت غليلك قليلًا من «عاطف» و«مدحت».

آه.. الرواية في طريقها للاكتمال، «نزار» يبحث عن خيط يربط بين العوالم، يجب أن أعطله قليلًا، سأنزل بنفسي في الفصل القادم، ألقي عليه تفاهات عن العوالم والقدر، أتكلّم بوقار، وأردد الكلمات ببطء، ذلك سيعطيها مفعولًا سحريًّا، هاها. وأضرب له قصة وهمية عن رجل حاول أن يستعيد أمه، قصة حاول «سالم» المجنون أن يكتبها وأنا سرقتها منه، هاها. آه، أيضًا يجب أن أجعل «بيسان» هي من تكتشف أنها سراب، ذلك أفضل من أن يخبرها هو..

وأنتِ يا «ريم»، الأمر وصل إلى المخدرات؟ فعلًا؟ أنا ظلمتكِ يا حلوة، عندما كتبتكِ، كنت أتلاعب

بعقلكِ، كنت أضع الخطوط الأساسية للجنون، وأتركك تتصرفين براحتك، وأكتب وفقًا لما توحين إليّ به، كنت أرى الجنون يعصف بك وتقاسين، لكن الرواية هكذا، تخيلي معي، لو رحمتكِ من الجنون وأخبرت القراء بالحقيقة، ستنتهي الرواية في منتصفها، ستصيب القراء خيبةٌ، ولكن ما دام الأمر وصل إلى المخدرات، سأحاول أن أرحمكِ قليلًا، أنا جعلت «عمر» يكتب لك بعض الأدوية، ستخرج تلك الفكرة من رأسك، الصبر يا «ريم»، هانت..

حسنًا، لنكمل..

ذلك المشهد- المُحمل بتلك الصور حولي، أرض أسفلتية صماء، لا بشر، عدة مبانٍ تلوح لي من بعيدٍ، يقف خلفها جبلٌ ضخمٌ- قد رأيته من قبل، في حُلم سابقٍ.
هل الأحلام تُعاد؟ أم فرغ عقلي من الخيال؟ فأصبح يُعيد ويُكرر الأحلام السابقة؟ أذكر ذلك الحلم الآن، ذلك كان عندما رأيتُ العجوز أول مرة، حارس ذلك العالم كما يقول.
هل سأراه لأول مرة مرة أخرى؟ أي يعيد عقلي نفس الحلم السابق، أم لنا لقاء آخر؟
أقفُ الآن في منتصف تلك الساحة. خيوط الشمس فوقي تنطفئ رويدًا رويدًا، الهواء يحمل نسماتٍ باردةً جميلةً، لكن محملة بقليلٍ من الأتربة. أضع يدي بجيبي وأسيرُ بهدوءٍ نحو تلك المباني، كلما اقتربتُ وضحت الصورة أكثر، بالفعل هناك شبح عجوز يجلس منتظرًا، أشار لي بالاقتراب أكثر، تقدمت إليه حتى أصبحت على بُعد خطواتٍ بسيطةٍ منه، نفس الجلباب الأبيض، والعِمَّة البيضاء، والعصا الغليظة، أشعرُ أنه ربما سيضربني بتلك العصا، يشير لي الشيخ بالجلوس جانبه، أجلسُ بحذرٍ قائلًا:
- كيف حالك يا حارس؟ أنا سعيدٌ برؤيتك مرةً أخرى.
- حقًّا؟ طيب، أنا لستُ بخير، وأنت تعرف لماذا، أليس كذلك؟
- آه، أعتقد أنني أدري ما جئتُ لأجله.

- على كل حال، أنا جئتُ اليوم لأسرد لك قصة تحدثك عن نتيجة تحدي البشر للقدر. وأن لا فائدة مجدية من التلاعب معه، ففي النهاية سيظل البشر مجرد بشر، لهم قوانين، وأقدار، لا يمكن تخطيها.

- طيب يا حارس، تفضل، احكِ.

- اسمع، بعالمٍ موازٍ آخر مثل هذا، استطاع رجلٌ مثلك خلق أحلامه، لكن بدون مادة أو شيء. كانت لهذا الرجل أم، ماتت في حادث، كان يُحبها كثيرًا، وبفراقها تركت جرحًا غائرًا في قلبه؛ وعندما وصل لتلك المرتبة، خلق عالمًا موازيًا له بنومه، أوجد به أمه، فرجعت له السعادة، لكنه لم يكتف بذلك، حاول أن يفعل مثل ما تفعل الآن. حاول أن يرجع ليوم حادث أمه وينقذها، حاول مرارًا حتى نجح أن ينقذها بعالمه الموازي، ولكن بيقظته أيضًا لم يجدها، فأصاب الجنون عقله، وأتلفه، وفقد عالمه الحقيقي والموازي.. تاه وسط العوالم، جُن عقله.. أترى؟ تلك قصة من ملايين القصص التي تحكي عن القدر، اسمع يا بُني، ربما، بطريقةٍ ما، تلك المحاولات تُشوش على عالم الفتاة الأخرى، ربما تعيشُ حياةً سعيدةً، وأنت تُفسدها بتلك الطريقة، أيسعدك أن تفسد حياتها؟

- لا بالتأكيد. لكن أنت لا تفهمني، أنا لا أريد تغيير القدر، أنا أدرك أنه لا أحد يمكنه ذلك. ولكن ربما، ومن المُحتمل، أن يكون ما أحاول فعله هو قدري بالفعل. أي بمعنى، أنه

ربما من المُقدر لي، أن ألتقي بصاحبي ليرشدني لفريد لتقع تحت يدي تلك المادة، لأصل هنا وأجلب بيسان للواقع. ربما يكون هذا هو القدر بالفعل، لماذا لا تفكر به من هذا المنظور؟

- كلام فارغ، القدر إذا أراد أن يجمعك بها، سيلقيها في طريقك مباشرة، سيأخذ بيدك ويدها، ويضعكما في مواجهة بعض مباشرة، لا يحتاج لكل تلك الدوائر والتفاصيل.

- طيب يا حارس، فهمتُ، سأفكر في كل ما قلته لي، أعدك بذلك، سأحاول أن أتريث قليلًا قبل أن أتخذ أي قرار.

- أتمنى ذلك بالفعل، وأتمنى ألا أضطر للظهور لك مرة أخرى.
يُغادرني الحارس، وأظل أنا جالسًا بمكاني على تلك المصطبة. أضع يدي خلف رأسي وأتراجع للخلف قليلًا مفكرًا. أنا لن أتراجع عن قراري، أعلم هذا، كما أعتقد أن حارس أيضًا يُدرك ذلك، لكن يُحاول أن يؤدي دوره للنهاية، حتى لا يتعرض للمحاسبة. كما أنه هذه المرة، أقنعني بفكرتي دون أن يشعر هو، حين قال لي إنه ربما ما أحاول فعله يشوش على حياة الفتاة الأخرى، معنى هذا، أن الأمر ممكنٌ بالفعل، وليس مستحيلًا. ربما يدري هو شيئًا لا يود البوْح به، لا ألومه؛ يجب ألا يحدث تداخل بين العوالم، تلك مهمته، أعرف هذا.

أنهض، أسير حتى خلف الجبل، يلوح لي الشاطئ من بعيدٍ، يبدو وكأن الشمس كانت تتوارى وراء الجبل، ما أن درت خلفه حتى نثرت الشمس مرة أخرى أشعتها الناعمة على الأرض. والنسمات الباردة، دافئة قليلًا الآن.

أفكر، وأنا أسير نحو الشاطئ، في ما أنوي قوله لبيسان اليوم، ربما الأمر سيصدمها، يشوش عقلها، ويجعلها تقع في حيرةٍ. لكن المواجهة، لا مفر منها. يجب أن تُدرك وتعي بوضعنا، على الأقل حتى تُساعدني هي إذا أمكن ذلك. أشعر وكأنني في لعبة "شد الحبل" طرف هنا في يدي، والآخر في يد مجهولٍ بعالمي الآخر. أجذب بقوةٍ وجهدٍ، ولكني ضعيفٌ، قوتي ضئيلة أمام ذلك المجهول. أحاول البقاء في مكاني، الوقوف ثابتًا على الأقل، عدم التعثر أو الوقوع.. ولكن يظل المجهول أقوى. وأجدني، دون إرادة مني، أندفعُ إليه.

أصلُ للشاطئ، أجد بيسان تجلس هناك على الرمال، تنظر للبحر وتضع يدها على ركبتها المثنية، تلبس فستانًا ورديًا جميلًا. أقترب منها مبتسمًا، أحجب رؤيتها بكفيَّ، تمسك بهما وتنزلهما لشفتيْها، تقبلهما برقة وتقول:

- أين كنت يا حبيبي؟ أشعر وكأنني لم أرك منذ فترةٍ طويلةٍ.
- أه يا حبيبتي، الأيام القليلة مع المحبين تُحسب دهرًا.
- أتدري.. كنت أجيء هنا كل صباح، أجلس وأنتظرك، وأفكر

أنك ربما مشغولٌ قليلًا، لذلك لم تأتِ، وبينما كنت كذلك، سليت نفسي بالرسم. انظرْ لقد رسمتُ عدة رسوماتٍ لك، انظر!

أتناول الرسومات، أجد بيسان قد رسمتني بالفعل رسمًا دقيقًا، بعدة أوضاع، لكن الغريب، تعابير وجهي، كلها عابسة، ما عدا رسمة تجمعني بها، أكون مبتسمًا حينها. تثير دهشتي رسمة لي. أقف خلف قضبان حديدية، يداي مرفوعتان لأعلى ومقيدتان بقيودٍ حديديةٍ، ورأسي شبه منكس.

- ما هذه الرسمة حبيبتي؟ لماذا رسمتني هكذا؟ ولماذا وجهي عابسٌ بكل الرسومات عدا الرسمة التي تجمعني بك.

- حبيبي، أشعر أن هناك قيودًا حولك. دائمًا أحلم بذلك؛ إنك لا تتحدث كثيرًا عن مشاكلك، ولكني أشعر بك مقيدًا. أما عن أنك عابسٌ بالرسومات، فلا أدري، ربما أنانية مني، فأنا لا أريدك أن تكون سعيدًا سوى معي، معي فقط.

أبتسم وأنا أناولها الصور وأقول:

- أنا فعلًا لا أكون سعيدًا غير معك، تلك حقيقة. ولكن ما تلك الرسومات التي تخفينها خلف ظهرك؟ لماذا تخفينها؟

- لا شيء.. إنها لا شيء.

- لا، حقًا ما هي؟ أريد أن أراها.

- لا شيء مهمًا هنا، بعض الرسومات لي أنا.

أخطف الرسومات من خلف بيسان، أتفحصها سريعًا، أجد

رسمة مرآة، بالمرآة يظهر وجه بيسان، وأمامها يقع فراغ، أو ظل بسيط مشوش. ورسمة أخرى، تظهر بها بيسان، بيدها سكين، تضع طرف نصله على ذراعها، ويتساقط من ذراعها نقط شفافة كالماء. ورسمة أخرى، حادث سيارة عنيف، السيارة مقلوبة، يخرج منها جسد بيسان، وعمود حديدي بأكمله مغروس في جسدها، تنظر لي بحزن، من الرسمة.. لم أفهم مغزى الرسومات الغريبة تلك. أسألها عن سر تلك الرسومات.

- إنها أنا يا نزار، أنا فقط.

- ما معنى هذا لا أفهم، وضحي يا حبيبتي من فضلك!

تنهمر الدموعُ من عينيْها فجأةً، تقفز لحضني، تُحاول جاهدة تجميع الكلمات.

- أنا سرابٌ يا نزار. لا وجود لي. أنا وهمٌ، خيالٌ، أي شيءٍ غير حقيقي.

ينعقدُ لساني، وتحتلني الدهشة، إذا كانت هناك أي ردود كنت أتوقعها اليوم، بالتأكيد ذلك ليس من بينها.

- حبيبتي، ما الذي دفعك لقول ذلك؟

- أنا أعرف ما أقول، أنا لا وجود لي بهذا العالم. منذ حادثة المرآة، والشك يقتلني. في يومٍ قررت اختبار صحة ظنوني، أمسكت السكين، وشققت به يدي شقًّا طويلًا، أتدري ماذا نزفت؟ لا شيء يا نزار. أنا نزفتُ لا شيء. لا يوجد دماء، وكأنني

مصنوعة من الهواء. تلك الحقيقة صدمتني. ركبت سيارتي وقدتُ مُسرعة، ودموعي لا تتوقف، تشوشت الرؤية أمامي، امتزج مطر السماء بدموعي، ونجحوا بيُسر في حجب الرؤية، انزلقت السيارة، ارتطم جانب السيارة بجزع شجرةٍ ضخمٍ، دُرت حول نفسي عدة مراتٍ قبل أن تنقلب السيارة. انغرس ذلك العمود الحديدي بجسدي، حتى خرج من ظهري. أتدري بماذا شعرت؟ لا شيء أيضًا، لا ألم، لا دماء، لا شيء يا نزار. فقط قمتُ، نزعت ذلك السيخ، كأن شيئًا لم يكن. قل لي يا نزار، أكنت تدري أنني سراب؟ قل لي من فضلك، لا تخفِ أي أمور عني، قل لي الحقيقة!

احتضنتها بقوةٍ، مسحت براحة يدي عنقها، ربت عليها محاولًا تهدئتها، أعتقد أنه الآن يجب أن أتكلم، أعطي تفسيرًا لما يحدث لها، لا أجد كلماتٍ مناسبةً للبدء، كيف أبدأ؟

- بيسان، اهدئي يا حبيبتي! اهدئي حتى أعرف كيف أشرح الأمر لكِ! سأحاول، جاهدًا، أن أوضح الأمر. الأمرُ غريبٌ جدًّا يا بيسان، سأحاولُ أن أمهد لكِ. قولي لي، هل تؤمنين بوجود عالمٍ آخر؟ بمعنى عالم آخر يعيشُ به بشرٌ آخرون، عالم لا ينتمي لهنا، هل تؤمنين بذلك؟
- أي عالم آخر يا نزار؟ أتقصد على الكواكب الأخرى؟ ربما، لا

أدري، العلم يقول إنه ربما هناك حياة على كواكب أخرى. ما قصدك؟

- لا لا. لا أقصد على الكواكب الأخرى يا حبيبتي، أقصد هنا على نفس الكوكب، نفس البلد، وربما نفس المكان الذي نجلس به الآن. هل تؤمنين بوجود عالم آخر به؟

- عالم آخر كيف يا نزار؟ لا أفهمك. كنت أظن أنني لا أعرف سوى عالم واحد منذ وُلدت، هذا العالم. لكن الآن، كل شيء أصبح وهمًا، أنا لا أؤمن حتى إنني وُلدت بالفعل. لا أدري شيئًا.

- بيسان، أنا لا أريد أن أصدمك حقًّا، لكن يبدو أنه لا مفر من قول الحقيقة مباشرة. أعتقد ذلك أقصر الطرق، أمممم، حسنًا. أنا نائم الآن، أحلم بكِ، أحلم بأنني أجلس معكِ وأقول ما أقوله الآن، وبعد ذلك سأصحو ويختفي كل هذا. هل بدأت تفهمين ما أود قوله؟

- قصدك إنني مجرد حلم؟ هل ما أفهمه صحيح؟

- أه، صحيح، ذلك حُلم يا بيسان، حُلم جميل، لكنه يظل حلمًا. كل تلك التفاصيل من خيالي الحالم، لا وجود لها في الواقع، أو لها وجود ولكن ليس بتلك الصورة، ذلك الشاطئ ربما ليس خاليًا بالفعل الآن، ولكنه خالٍ فقط في عقلي؛ أنتِ يا بيسان. أنتِ أيضًا، لا أعرف كيف أقول لكِ ذلك، ولكنكِ خيالٌ أيضًا، ولستِ حقيقة. وهذا ما يُحزنني، ويفطر قلبي.

- خيال؟.. كنت أعرف هذا، عرفت هذا منذ يوم المرآة، ولكن

لماذا لم تخبرني من البداية يا نزار؟

- لم أرد أن أجعلك حزينة، بالطبع ذلك كان سيصدمك، أن أقف وأقول لكِ إنك خيالٌ لا وجود لكِ. وإن كل ذلك من صُنع خيالي فقط، في الحقيقة، أنتِ ليست خيالًا كاملًا؛ بمعنى: أنا رأيتك في الواقع بالفعل، سمعتُ صوتك بالقطار، ولكن لم أتمكن من اللحاق بك. منذ ذلك اليوم وصورتك ببالي. وعندما اخترع فريد تلك المادة، قررت أن أحلم بك، وأعيش معكِ، لكني أحببتك بشدةٍ يا بيسان لدرجة أن الخيال لا يكفي لي، أنا أريدك أيضًا بالواقع، أتفهمين الآن؟

- ربما أفهم الآن أنني وهمٌ، أو حُلمٌ. ربما عقلي يفهم ذلك بالفعل، لكن قلبي يقول شيئًا آخر. قلبي يقول إنني حقيقية، أنا أشعر، وأحب، أنا أحبك بالفعل، ألا يكفي ذلك لأكون حقيقية؟

- حبيبتي، أنظري حولك، كل شيء حولك نظيفٌ، وهادئٌ، وجميلٌ. متى كان الواقع بهذا الشكل؟ الواقع ليس هكذا يا بيسان، الواقع بائسٌ جدًّا، عفنٌ. يكثر به الدود، الصراصير، والفئران. الواقع أنفاس مخنوقة، صرخات مكتومة، أفواه جائعة، عُهر، خراء، دماء. السماء تمطر دمًا أحيانًا، حدث ذلك أول مرة منذ فترة، كان الأمر بدأ بقطرات خفيفة من الدماء، وحينما لم يعترضْ أحدٌ، ووجدت السماء البشر يلهون في الدماء، فأرسلت المزيد، والمزيد، وحتى الآن لم يعترض أحدٌ. الواقع ليس جميلًا

هكذا كما تظنين يا بيسان.
- أفهم الآن. ولكن إذا كان هذا واقعك، وإذا كان فيه كل هذا، فلماذا تريد أن تأخذني إليه؟ لماذا تريد أن تقحمني في كل هذا البؤس؟ لماذا لا تعيش أنت هنا معي؟ فلماذا لا تبقى معي بهذا العالم؟ لماذا تريد أن تغادرني لواقعك البائس؟
- اه، لأن الواقع يظل واقعًا يا بيسان، آجلًا أو عاجلًا سأضطر لمواجهته، وأنا لا أريد مواجهته وحيدًا، أريدك معي. كما أن فريد لن يدوم، كما أنه يا بيسان أنت موجودة بالواقع بالفعل، ولكنك الآن صورة منك، أتفهمين؟ لو تواصلت صورتك مع روحك، سنتمكن من اللقاء بواقعنا، فقط حاولي أن تتواصلي مع روحك، أعتقد أنك ستتمكنين من ذلك.
- أمر مرعب، أن تستيقظ ذات صباح، وتكتشف أنك وهمٌ. لا وجود لك. ربما تتفهم شعوري الآن وما أنا فيه، يصعب عليَّ معرفة أنني خيالٌ لا وجود لي. هل أيضًا المشاعر التي بداخلي الآن وهمٌ؟ أشعرُ بخوفٍ، حيرة، ظلام، يلف قلبي. والدموع التي تغرق عيني الآن، ماذا عنها؟ قل لي يا نزار، كيف أكون وهمًا وأنا حية هكذا، أحب وأشعر وأتألم، قل لي من فضلك، كيف؟
- حبيبتي، لا تصعبي الأمور، سأثبت لكِ صدق كلامي، أبحثي بذكرياتك، احكِي لي عن طفولتك، مدرستك، احكي لي كل ما تتذكرينه.
فترة طويلة من الصمت، ودموع بعينيْن زائغتيْن، تنقلب تلك.

الدموع لنحيبٍ بصوتٍ عالٍ..
- أهئ أهئ.. لا شيء بالفعل، لا وجود لي.. لقد حاولت البحث بين أروقة ذاكرتي، لكنني لم أصل لشيء، كبحر عميق، لا يمكن أن أصل لقاعه، لا طفولة، لا ذكريات، لا مدرسة، لا شيء، ذكرياتي صفحة بيضاء، ذكرياتي تبدأ كلها منذ التقيتك، أنا وهمٌ بالفعل، لا وجود لي.
- حبيبتي، لا تقولي ذلك، أنت موجودةٌ بالفعل، وهذا ما أحاول الوصول إليه؟ هل تفهمينني الآن؟ هل يمكنك مساعدتي؟
- نعم أفهم، سأحاول تخطي تلك المرحلة مع نفسي، وسأركز الآن على مساعدتك، الآن ما المطلوب أن أفعله تحديدًا؟ هل من المفترض أذهب للنوم وأحاول أن أتواصل مع روحي أثناء النوم؟ أم ماذا؟ لا أفهم.
- فكرة جيدة جدًّا. اسمعي! حينما أصحو، وفي الخامسة تحديدًا، سأذهب لكافيه "كوستا" على طريق البحر القريب من هنا، سأنتظرك هناك، وأنت حاولي أن تجدي طريقة لتوصيل تلك الرسالة لشخصك الآخر، ربما عن طريق النوم، ستكون فكرة جيدة.
- حسنًا يا نزار، أتمنى أن أراك بالفعل في عالمك الآخر، ولكني أتساءل، إذا استطعت إيصال تلك الرسالة لنفسي بالفعل، ونجح الأمر وتقابلنا، ربما أنا لستُ كما تظن، ربما لن أعجبك عندما تقابلني في عالمك، أعني ربما أنا هنا جيدة، لأن عقلك

يريد ذلك، بالتأكيد الواقع لا يسير كما يحب عقلك، أتفهم؟
- نعم يا حبيبتي، أفهم تمامًا، ولكن أحب أن أقول، إنني سأحبك في أي صورة كنتِ، كما أن تلك العيون الملائكية لا يمكن أن تكون صاحبتها شخص سيئ، أثق في..

يقطع حديثنا صوتٌ موسيقي قادمٌ من بعيدٍ، أستمع إليه أنا وبيسان بحيرةٍ، ننظر حولنا، نلاحظ موكبًا من البشر قادمين من بعيدٍ، وصوت الموسيقى يزداد، كأنها موسيقى جنائزية حزينة، ذات رتم بطيء حزينٍ، تُصاحبها بعض الهمهمات غير المفهومة، يقترب الموكب، تتضح صورته أكثر، ستة أشخاص يلبسون قفاطين بيضاء فضفاضة، وفوقها عباءات بيضاء، يغطون رؤوسهم، لا يظهر من وجوهم شيء، يحملون نعشًا وفوقه جسدٌ ممدد، يبدو وكأنه جسد ميت، وتلك جنازته. أقف أنا وبيسان ويقترب منا ذلك الموكب، الموسيقى الجنائزية والهمهمات غير المفهومة يصيران أكثر وضوحًا، يبدو كأنهما مزيجُ أعد لصلواتٍ بلغةٍ مجهولةٍ. أسمع شهقة بجانبي، ألتفت لبيسان، أجدها مذعورة وتشير بإصبعها نحو جسد الميت، أنظر مرة أخرى للموكب، أركز على الجسد، أفهم الآن لمَ شهقت بيسان، ولمَ تقف مذعورة بجانبي، ولمَ تشير للجسد الميت تحديدًا، فعلى ما يبدو أن ذلك جسدي أنا، وتلك جنازتي، رأس الجسد ينظر تجاهي، وهو بالفعل رأسي أنا، لا يمكن أن

يكون لأحدٍ غيري. أمسك يد بيسان وأطمئنها أن كل تلك هلوسات لا وجود لها، ونمشي بعيدًا عن ذلك الموكب، أحاول الابتعاد قدر الإمكان، أسمع شهقة بيسان مرةً أخرى، ألتفت لها أجدها مذعورة تمامًا كالمرة السابقة، لكن هذه المرة تشير إليَّ، إلى جسدي أنا، تحديدًا تشير إلى عنقي، أضع يدي على عنقي، فأصطدم بجسم صلب ذي ملمسٍ بشعٍ له أذرع كثيرة، أنفضه في رعبٍ، فأجده عقربًا أسود ضخمًا، يتقافز بجنونٍ على الرمال، فأدهسه بقدمي بسرعةٍ. تتحوَّلُ الرمالُ فجأةً تحتي للون الأسود، أنظر جيدًا فأجد المزيد من العقارب السوداء، تقترب منا بسرعة، أمسك يد بيسان وأعدو سريعًا، تلحقنا العقارب، وهي تتقافز بمرح، العشرات منها تسربت لبنطالي من أسفل، وعشرات أخرى قفزت لصدري وعنقي ورأسي، وكذلك فعلت مع بيسان، أشعر بالألم في كل جسدي، أشعر بالدماء تنزفُ بغزارةٍ، والألم يزداد، وصرخات بيسان بجانبي تزيد من ذلك الألم. أعدو سريعًا نحو الشاطئ ممسكًا ببيسان، نلقي بأنفسنا في المياه، أخلع ملابسي، وكذلك أفعل لبيسان، تنحصر العقارب عن جسدينا بفعل الماء. أراقبها وهي تغطس وتغرق، أقف قليلًا وسط الماء لالتقاط أنفاسي، ألاحظ أذرعًا سوداء صغيرة مختبئة تحت ستيان بيسان، أحاول فك الستيان وترفض، أضع يدي في صدرها وأخرج عقربًا صغيرًا كان مختبئًا بالداخل، أقذف به بعيدًا. أمسك يدها ونتجه نحو الشاطئ للخروج، المياه يزداد

منسوبها كلما حاولنا الخروج، وتزداد الأمواج قوة، نقع وتغرقنا المياه، نحاول السباحة فتلكمنا الأمواج، فنغطس مرة أخرى، تنجرف بيسان بعيدًا وتختفي تحت المياه، قبل أن يطفو رأسها مرة أخرى. أحاول الوصول إليها، فلا أقدر، أسمع صرخاتها بحزن، أحاول مرة أخرى، أحارب الأمواج، أنجح بصعوبةٍ في الوصول إليها. أحتضنها وأحاول الخروج، تغرقنا الأمواج مرة أخرى، تنهار قوتنا تمامًا، وتضعف المقاومة، نتقلب عدة مرات، أحاول السيطرة بقوةٍ واهنةٍ، لا أقدر، أنظر لبيسان ألا مفر، تقبلني ونمسك أيادي بعضنا، نترك أنفسنا للأمواج تجرفنا للداخل، أدع الماء يغمرنا، أشعر بالماء يملأ صدري، نبضات قلبي أصبحت أكثر بطئًا، دمائي أشعر بها أصبحت أكثر تماسكًا، أرى رغوة بيضاء تسبح أمامنا تنساب من أفواهنا، يتسرب وعينا منا، ونغرق، بهدوء، وسلام.

"لا تسبح بعيدًا يا نزار، حتى لا يجرفك التيار بعيدًا وتغرق!"

تتردد كلمات أمي في رأسي، طالما قالت لي تلك الكلمات. أعتقد الآن ألا فائدة منها، فقد غرقت بالفعل. أفتح عيني، أجدني قد وصلت لقاع البحر، والضوء الذي يصلني من أعلى ضعيف جدًا. أبحث عن بيسان، فلا أجدها حولي، جرفها التيار بعيدًا

بالتأكيد. أدرك الآن أنني ميت، وأن الذي يسبح الآن مع الأسماك جسدي فقط. روحي ربما تطرق أبواب السماء الآن. أصعد بجسدي لأعلى، نحو النور. أنا ميت نعم، ولكني لا أحب الظلام على أي حال. أشق طريقي لأعلى، يقترب سطح الماء، ويزداد النور، أشق سطح الماء برأسي، وأشهق.

أشهقُ بقوةٍ، فترتد روحي إليَّ. أنظر حولي، أجدني في غرفتي، على السرير، إذن ما زلت حيًّا؟ يبدو ذلك. كان يجب أن أستمع لكلام فريد، ما كان يجب أن أتناول تلك الحبوب المنومة، انتهى كل شيء بكوابيس سوداء.
لكن الأمر ليس سيئًا لهذه الدرجة. الكوابيس مفيدة أحيانًا. بعض الفوضى والإثارة، تكسر العالم المثالي، تجدد دماء الأحلام، تضخ بعض الأدرينالين بجسدك، تسحبك لموتٍ قصيرٍ، تدعك تجرب الموت، ثم تمنحك ذلك الشعور الرائع، عندما تعلم أنك لم تمت بالفعل، وأن ذلك كان حلمًا.

***

ريم

هذا الصباح أريد أن أقتل شخصًا ما، أي شخص سيفي بالغرض. أستيقظ وبداخلي رغبة قوية- لا أعلم مصدرها- بالقتل. نشوة ما بعد القتل وسلب الروح. دماء البشر المطهرة للروح، الخلاص.

أقوم وأتجه للشارع، يجتاحني غضبٌ عظيمٌ. أقفُ على ناصية شارعي وبيدي ساطورٌ ضخمٌ، سحبته من المطبخ قبل نزولي. أقف بتوتر أرقب المارة، لاحظ رجلٌ توتري فأقترب قائلًا: أنت غاضبة بما يكفي لقتل أحدٍ ما، أليس كذلك؟ أجبت أن نعم. فرد قائلًا: هل تمانعين إذا كنتُ أنا ذلك الشخص؟ أنا أفتش منذ ساعةٍ على طريقةٍ جيدةٍ لإنهاء حياتي، أظن لا أفضل من أن تحقق لأحدهم أمنية بموتك، أنت تعلمين نحن أبناء الطبيعة نحب ذلك. سأكون ممتنة لك جدًّا في الحقيقة، أرد أنا. أرفع الساطور وأنزل به على كتفه، تنفجر الدماء، أرفع مرة أخرى وأهوي على صدره، أطرافه، عنقه. إحساسٌ لذيذٌ في الحقيقة، ترى كيف سيكون ذلك الإحساس إذا مزجته ببعض الكافيين؟ أذهب إلى المقهى، أتناول قهوتي بيدٍ ملتويةٍ دون أن أسكب شيئًا على ملابسي، يقدم لي الرجل الحساب مبكرًا، فأقول: أي ذنب ارتكبت لتقدم لي الحساب مبكرًا؟ فيرد الرجل: أنت إنسانة، ألا يكفيكِ ذلك الذنب؟ الإنسان خطيئة ذلك الكون، تعلمين ذلك. فأحاسب في صمتٍ وأرحل. أقف في منتصف الطريق، لا أعرف أين أذهب، أقف حائرةً، أرى بائع جرائد، يقتربُ مني مهرولًا، مذعورًا، مروعًا. يمد يده إليَّ بجريدة، قائلًا: سنفنى قريبًا، ويعدو مبتعدًا.. أفتح الجريدة، أنحني قليلًا للأمام، أقف على قدم واحدةٍ، وأرفع الأخرى للخلف كلاعبة باليه، وأقرأ: "الكون سيفنى قريبًا، وهذا يعني فناءنا نحن البشر أيضًا، لأننا

جزءٌ من ذلك الكون، بطبيعة الحال. وهذا يعني أنه لا مزيد من الموسيقى، السينما، والأدب. كل شيء سيتحول لذرات غبار تسبح في العدم بلا جدوى، بلا هدف".

هذا الصباح، أريد أن أقتل شخصًا ما. أي شخص سيفي بالغرض. أستيقظ، وتلك الكلمات تضربُ رأسي، وذلك الحلم- أو بمعنى أدق الكابوس- يشل تفكيري. كنتُ قد اعتدت الأحلام الوردية، تلك الكوابيس كانت تزورني نادرًا. لمَ هذه الأحلام الغريبة تُعاودني؟ يبدو أن حياتي أصبحت عبارة عن متتالية أسئلة دون أجوبة. كل هذا لا يهم الآن، أنا مستيقظة اليوم ولديَّ رغبة قوية بالكتابة كثيرًا، وما أشير إليه هنا بالكتابة، ليست تلك الكتابة المنمقة، المرتبة، الشاكية، المملة. لا لا. فقد وجدتُ أن لغتي الباكية تزيد من ألمي النفسي، وتزيد من جنون عقلي، أرهقتني، أجد نفسي بعد كل عدة صفحات أكتبها، متعبة نفسيًا.

اليوم، لا أود أن أصدع رؤوسكم بأحلامٍ لا جدوى منها بالنسبة لكم، سأترك ذلك الأمر لعمر بعد قليلٍ، ذلك عمله، ومُجبر أن يستمع إليَّ. لكن حقيقي أود أن أبوح بكل ما بداخلي، وما أود أن أفعله، دون الالتفات لمعايير أخلاقية، إنسانية، أنا أتحرر من نفسي، دعوني أفعلها دون إلقاء لوم، أو عتاب.

فمثلًا أنا أود أن أركض لساعاتٍ دون توقف، حتى يصيبني

الإعياء وأقع. أود أيضًا، أن أصيرَ عاهرةً، ليومٍ واحدٍ على الأقل، أكون إحدى ساكنات بيوت الجنس، أضاجع الرجال طوال اليوم، دون توقف، أغرق جسمي بالمنْي، والعَرق، حتى أقع مغشية. أود أن أذهب لبيوت العجائز، هؤلاء ضعيفي الأجساد، عديمي الجدوى، وأكسر عظامهم الهشة، وأنهي حياتهم بعنفٍ. أود أن أحضر بعض الأطفال، هؤلاء أصحاب الأوجه البريئة، ما بين سن الـ ٤-٦ سنوات، وأن أصفعهم بقوةٍ على وجوههم حتى يبكوا بشدة، أود أن أراهم يبكون، ذلك سيُريح أعصابي. أن أسكر بشدةٍ، وتطيح بعقلي المخدرات، أن يتم اغتصابي بعنفٍ على أيدي مجموعة من المتشردين، أن أعتقل ويتم تعذيبي. أود أن أطهر روحي، وعقلي، بالألم.

لا تعجبني تلك الحياة الهادئة، عقلي يئن من الملل، وروحي أصابها العطب، أود بعض الجنون، بعض الجنون لكسر تلك الرتابة، بل أود لو أنني مجنونة بالفعل.

***

في المساء.

أجلس مع عمر بالعيادة، ويدورُ بيننا الحوار التالي، أروي لكم الحوار بنصف وعي، فالنصف الآخر مع عمر يستكمل الحوار، لذلك نصفي الآخر يسبقني قليلًا، ربما بعشر دقائق، ولكن بالتأكيد سنحصله في البرهات الصامتة. لا تقلقوا، لن يفوتنا

شيء.

المقدمة لن تفيدنا هنا كثيرًا، بعض التحيات، وكيف الحال. بالطبع لستُ بخير، أجبته بصدق. ثم حكيت له عن ذلك الكابوس، الغرائبي، غير المفهوم. حكيتُ له بالتفصيل كل ما حدث، ثم سألني عن ما الذي فعلته في هذا اليوم قبل النوم؟ وماذا أكلت؟ والآن، نحن في البرهة الصامتة أحاول أن أتذكر، يصعب التذكر بنصف وعي، لذلك من الجيد أننا وصلنا بالوقت المناسب، اختصرنا وقتًا كثيرًا، واكتمل الوعي الآن.

أتذكر كل شيء مرةً واحدةً، الرواية، الوجبات السريعة، وذلك الفيلم المُمل.

- آه، أتذكر الآن، قرأتُ رواية كانت لديَّ منذ فترة. عندما بدأتُ أقرأ، أدركتُ ومن اللحظة الأولى أن تلك الكاتبة مُلحدة، كل الأفكار بالرواية تدعو لذلك، أذكر الآن بعض الجمل قرأتها بالرواية ووردت بذلك الكابوس كـ "نحن أبناء الطبيعة" و"سنفنى مع فناء الكون". يبدو أن عقلي لم يستطع التخلص منها حتى بالنوم. كما أنني طلبت إحدى الوجبات السريعة، وشاهدت فيلمًا أصابني الملل في منتصفه، فنمت.
- طيب يا ريم. الأمرُ واضحٌ، الأحلام السيئة، والكوابيس،

أحيانًا لا تُعد مجرد أحلام، فهي نتاج ليوم تم تحفيز فيه مشاعرك وأعصابك، وأخذ جزءًا من تفكيرك، كل ذلك يشكل مادة للأحلام في الليل. كما أن الطعام أيضًا له دور مهم جدًّا، خصوصًا الكربوهيدرات، والتي تكثر بالوجبات السريعة، لأنها صعبة الهضم، وتؤدي لاضطرابات جسمانية أثناء النوم، وهو ما ينعكس بالضرورة على أحلامك. أما موضوع القتل، فلا أعرف تحديدًا، ولكن يبدو من الحلم أن بداخلك غضبًا شديدًا، يكفي لقتل شخص ما، وقد حاول عقلك تفريغ ذلك الغضب في قتل أي شخص. لا تحاولي أن تشاهدي أفلامًا دموية قبل النوم، حتى تحصلي على نومٍ هادئ.

- نعم، سأحاول أن أفعل كما تقول، لكن هناك أمرًا آخر. أود الآن أن أحكي لك عن حُلمي مع الوسيم، آخر حُلم جيد لي، حدث منذ يومين، ولكن حدث شيءٌ جديدٌ، وغريبٌ، ستدهش عند سماعك، فحضر ذهنك جيدًا، لأن ما أنا على وشك قوله، ستعيد معه التفكير بكل ما آمنت به.

ثم حكيت له عن حلمي، وعن فارسي الذي قال لي اخر مرة إنه ليس مجرد حلم أنا أحلم به، وليست هلوسات، بل هو إنسان يوجد في الواقع، رآني من قبل لكن لا يعرف كيف يصل إليَّ، لذلك هو كان يسعى جاهدًا للوصول إليَّ عبر أحلامي، وإنه أعطاني ميعادًا، الساعة الخامسة، لكن للأسف الحلم كان مشوشًا بخصوص المكان، فلم أعرف أين من المفترض أن أذهب.

سكت قليلًا عمر ثم قال:

- .. لا أدري. هذه حالةٌ غريبةٌ ونادرةٌ، تلاقي أرواح خلال النوم، ليس مستحيلًا، مع العقل، لا يوجد شيء مُطلق. كما أنه بعض الكتب، تشير في أكثر من موضع إلى حدوث شيء كهذا من قبل. لكن اعذريني أيضًا، بحكم طبيعة عملي، يصعب عليَّ التصديق. لكن أعتقد أننا فعلًا اقتربنا للحقيقة، أعتقد المرة التالية، يجب أن تلحي في السؤال عن المكان، وأن تحفريه بذاكرتك جيدًا، فربما فعلًا نقابل هذا الرجل من العالم الآخر، لكن من فضلك أعلميني قبلها بالمكان والميعاد.

- بالطبع، لا تقلق، أتمنى أن يكون ذلك قريبًا يا عمر. أشعر بقلبي مهتاجًا، نبضاته كأنها تتلاحق في سباق، هذا يخبرني، بطريقة ما، أني سأراه قريبًا.

- أتمنى هذا فعلًا.

***

مذكرات الكاتب المجنون

٩

أعلم أني أرهقتكم بحكايات «سالم» المجنون، لكن يجب قول ما حدث. الحارس اللعين، الذي أرسلته في رحلة لعالم بعيد، اكتشف ما فعلتُه معه وقرر أن ينتقم مني، فذهب لـ«سالم» وحكى له عني، وعن روايتي، وأنني تنكّرت في هيئته وأختبئ هنا، فشرع «سالم» يبحث بين أصدقائه الكُتّاب عن أحد يكتب رواية حالمة، بطلها يجيد القفز بين العوالم، ويحرس عالمه شيخ عجوز. لكن أحدًا من أصدقائه لم تقابله فكرة كهذه. مسكين «سالم»؛ هروبي سبّب له عقدة، من بعدي لم تكتمل له قصة. هاها.

وأنت يا «نزار»، لا يهمك أحد؟ لا تسمع كلامي ولا كلام «فريد»؟ تريد أن تمشي الرواية على راحتك؟ سأنهي هذا العبث قريبًا، يكفي ذلك. كل واحد يظن نفسه كاتبًا ويريد مشاركتي التأليف. ألا يكفيني «عمر» النحنوح؟ مرة يظن نفسه طبيبًا بالفعل، ومرة أديبًا، وهو صعلوك أصلًا! «عمر» هذا كان شابًا متشردًا في رواية منسية لكاتب نصف

مشهور، رواية مركونة على الرف لا أحد يقترب منها، جئت به ونظفته وألبسته وهندمته، وقلت له: تصرف كطبيب نفسي. ولكنه تمادى وصدَّق نفسه، يفتي ويفسر ويستنتج من دماغ أمه.

وأنتِ يا «ريم»؟ قتل شخص، وعاهرة، وبيوت جنس، وتكسير عجائز؟ أنا أجعلك فتاةً حلوةً وراقيةً وأنتِ تريدين أن تصبحي عاهرة وتسكني بيوت الجنس؟ هذا جزائي؟ أنا أكتب لكم رواية حالمة، وأنتم تريدون سحبها للقاذورات؟ سأضع لكم النهاية قريبًا، يكفيكم ذلك.

نزار

مرَّت الآن خمسون دقيقة، بعد الرابعة. مما يعني وفقًا للتوقيت الستيني، أنه تبقى على الوصول للخامسة، عشر دقائق. دون أي واردة شك، كل المتبقي عشر دقائق. ووفقًا للنظرية النسبية، قد تتحول تلك الدقائق لدهر من الانتظار، وهذا ما أشعر به الآن، وأنا أقفُ على الجانب الآخر، المواجه للكافيه، أنقل بصري بين عقارب الساعة الرتيبة، وباب الكافيه. أفحص كل أنثى تجتازُ بابه، فحصًا يبدأ بالقمة نزولًا بمنطقة الصدر ثم الخصر حتى السيقان، وأقارن كل تلك التفاصيل بما يختزنه عقلي لبيسان. لا أريد الدخول الآن، أخشى أن يظن الناس بي الجنون، وأنا أتلفت حولي كل ثانية، وأبحلق بكل فتاة تعبر المدخل، لذا سأدخل بعد الخامسة بقليل.

- هل ستأتي اليوم حقًّا؟

تسرَّب إلى عقلي الناعس ذلك السؤال فور يقظتي، فحرتُ في أمري. الأمر يحدث لأول مرة. لا نرى كل يوم، شخصٌ يذهب في موعدٍ مع خيالٍ من رؤاه، لن أندهش إذا ظن بي أحدٌ ما الآن الجنون، إذا صارحته وقلت له، أنا على موعدٍ مع فتاةٍ من الرؤى. جاهدتُ كثيرًا هذا الصباح في ترتيب الأمر بذهني. إذا حدث وأتت بالفعل، ما سيكون رد فعلي، ماذا سأقول؟ هل أتصرف

على سجيتي؟ هل ستتذكر كل ما مررنا به معًا؟ عشرات الأسئلة اقتحمتني، فانشغلت في تحضير لكل سؤال إجابة جيدة، رد فعل، وكلمات مناسبة.

أظن الآن وقتًا جيدًا للظهور، أنظر لساعتي، تجاوزت الخامسة ببضع دقائق، ينتابني قلقٌ وتوترٌ، أشعر بقطراتِ عَرق تتجمع عند مقدمة رأسي. أعبر الشارع ببطء، أجتاز مدخل الكافيه، أبحث بين الجالسين، لا أحد يشبه بيسان. أختار طاولة قريبة من المدخل، حتى يمكن بسهولة، ودون عناء، متابعة الرواد. أتذكر أن هناك طابقًا أعلى، أترك مكاني وأصعد لأعلى أتفحص المكان، لا يوجد ما يثير الاهتمام، أنزل مرة أخرى لطاولتي قرب المدخل.

الوقت بطيء، لا يمر. أشعر بالزمن وكأنه منهكٌ ومجهدٌ، توقف لالتقاط أنفاسه قرب ذلك المشهد، الذي أجلس به الآن، ربما يُراقبني الآن ويتلذذ بتعذيبي هكذا.

تمر الدقائق مصحوبة بخيبتي، أربعون، خمسون، السادسة الآن. لم يأت أحد. أشعر باليأس يضربُ أوصالي، مع قرب العقارب للسابعة، لم تأت بيسان، أو أي فتاة أخرى تشبهها، أو أحد يبحث عن حلمٍ جميلٍ رآه، لا أحد غيري فعل ذلك.

هل كفت الناس عن ملاحقة الأحلام؟

ماذا تبقى لنا إذن؟

الواقع سيئ، ورتيب، ونحن غارقون فيه. الأحلام استحالت

لمشاهد متكررة من عدة كوابيس، نادرًا ما يقتحمنا حلمٌ جميلٌ، وعندما يفعل، لا نتمسك به؟ ما لهؤلاء البشر لا يفهمون، لم يتبق لنا سوى تلك الصور الباهتة من الأحلام الجميلة، هل يجب أن نمزقها أيضًا؟ ونغرق بوحلنا في كوابيس أبدية مكررة؟ أعتقد أنني لن أفعل ذلك.

أحملُ أحد تلك الأحلام، أسعى إليه بتؤدة وروية. حلمي عنيد، بين دروبه الكثير من العثرات، لي نفَس طويلٌ ممتد، يمنعني من الغرق، أحيانًا. أعتمد عليه، وحده، بعد الكثير من الصلوات، حتى أرى النور، حتى تداعب أناملي المبللة نسمات سطح أراه قريبًا، حتى أقف بقدمي على حافة حلمي، لأهوي بقوةٍ نحو المصير.

ثلاث ساعات كافية لتثبت لي، أنه لن يأتي أحد. أغادر المكان وفي رأسي تكونت فكرة جديدة، سأجربها الليلة.

- بيسان، لماذا لم تأت؟ انتظرتك كثيرًا

- حبيبي. لم آت فعلًا؟.. لا أدري صدقني. أنا حزينة لهذا، ولكني لا أعرف كيف من المفترض أن أفعلها. فعلت كل ما قلت لي، ذهبت المرة السابقة للنوم، ورأيتني في حلمي أقف وحيدة على الشاطئ، فقلتُ لنفسي ربما تلك هي صورتي، أو أنا صورتها، فذهبت إلي في حلمي، وشرحت كل شيء، وذكرت المكان والميعاد، ورأيت نفس ملامح الصدمة التي اعتلتني من قبل، فحاولتُ

أن أوضح لها الموضوع، الذي هو بالأساس يصعب عليَّ فهمه، ولكن بعد فترة، استوعبت ما قلته، وقالت إنها سوف تنتظرك، أقصد أنا وهي معًا، أمممم، أقصد أنا أو صورتي، الأمر مربكٌ جدًّا، هل تفهمني؟

- نعم يا حبيبتي، أفهم ما تقصدينه. كنت أتوقع هذا، سيكون صدفة أن ينجح الأمر من أول مرة، ربما وعيك الآخر في الواقع الحقيقي الآن مرتبك، تائه. اسمعي ..خطرت ببالي فكرة جيدة، انا أخطأتُ عندما حددت المكان، والوقت، بالتأكيد سأحدد مكانًا مفضلا لديَّ، قريبًا مني، أعرفه جيدًا. أعتقد من الأفضل أن نعكس الأدوار، أن تحددي أنت المكان والوقت اللذين يناسبانك، ربما من الأفضل أيضًا أن تفعلي ذلك عن طريق صورتك، تتواصلي مع روحك، وتحددي أنت كل شيء وتخبريني.

- حبيبي.. ربما تدرك الآن وتفهم مدى غرائبية الأمر بالنسبة لي. قل لي كيف يتأقلم الفرد مع معرفة أنه وهمٌ، لا وجود له؟ اعذرني حبيبي، الأمرُ أشعرُ به أحيانًا وكأنه فوق مستوى إدراكي. الأمر صعبٌ جدًّا. لازم تفهم ذلك.

- فعلًا يا حبيبتي. الأمر ليس سهلًا. عارفة؟ ربما يجب ألا تفعلي شيئًا اليوم. ربما الأفضل أن نظل مستلقيين هنا معًا، على تلك الرمال الناعمة، أضمك لقلبي، ونتحدث قليلًا، ربما عن أشياء لا يمكننا البوْح بها لأحد.. فأنا مثلًا لديَّ سر، بخصوص زوجتي، لم أعرف فعلًا إذا كنت أحببتها حقا أم لا،

لكني كنتُ أخاف الوحدة، أخاف أن تتركني يومًا لرجلٍ غيري، كنتُ أخشى خيانتها لي. كنتُ أشعر بأني لا أستحقها، أو هناك شيء خاطئ. منذ الصغر، تعلمتُ أن الحياة ليست عادلة. فمن الطبيعي أنها لن تمنحني امرأة كاملة مثلها دون مقابل، أو أن يكون هناك خطأ. ظللت أبحثُ عن ذلك الخطأ دون جدوى. فقمتُ بخيانتها، من باب الانتقام المُبكر، أو الاحتياط. ثم انتهت العلاقة، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى أدركتُ أنني كنتُ أنا الخطأ الوحيد بتلك العلاقة. وتيقنت من دروسي صغيرًا، فالحياة ليست عادلة بالفعل حتى تمنحها رجلًا مثلي، مريضًا- على الأرجح- نفسيًا.

- لا يا حبيبي. لا تقل هذا! أنت لست مريضًا، ولكن ربما ذلك حدث حتى تلتقي بي، ألست سعيدًا بذلك؟.. أنا أيضًا لديَّ سر، ليس سرًّا بالمعنى الحرفي، لكن أشياء لم أقلها لك بعد، وبما أنك الشخص الوحيد بحياتي، فإخفاؤه عنك يُعد بمنزلة السر، أليس كذلك؟... منذ أن أدركت أنني وهمٌ، وعقلي لا يتوقف، يحاصرني بصورٍ كثيرةٍ بنومي ويقظتي، صور من سنوات بعيدة- أدرك أنها بعيدة، لأنني كنت صغيرة بتلك الصور- لا أذكرها، وأشخاص لا أعرفهم. فمثلًا، أرى مُدرسة تُعنفني بالعصا عدة مرات لإهمالي دروسي، والتلاميذ حولي تضحك. وصورة أخرى لشاب يصطحبني خلفه على دراجة ونضحك بسعادة. وصورة لي وأنا أجلس وحيدة على شاطئ مثل هذا، أبكي بها كثيرًا.

وصورتك أنت، تجلس أمامي بالقطار، تنظر لي كثيرًا، وأنا أخجل من نظراتك، وأنت لا تزيح نظرك عني، فيزداد خجلي. صور كثيرة تُحاصرني، لكن لا أعرفهم، لا أتعرف سوى على صورتك أنت فقط، ولا أفهم هذا.

- بجد؟ ذكرى القطار تظهر لكِ؟ جيد جدًّا. أتعرفين ماذا يعني هذا؟ أنك أنت وصورتك توحدتما الآن، بمعنى أنك ترين صورًا من حياتك الواقعية بالفعل، وأنتِ الآن لا تذكرينها لأنك تحلمين الآن. صورتك التي في الحلم لم تعش تلك الصور في الواقع الحقيقي، أتفهمين؟ أنا سعيدٌ جدًّا بهذا، هذا يعني أن الأمر اقترب جدًّا يا حبيبتي.

- أتمنى، لكن عارف؟ أخاف قليلًا، إذا نجح الأمر وقابلت صورتي بعالمك، لن يكون لي وجود هنا، سأنتهي من هذا العالم، وربما جدًّا تكون صورتي ليست أنا. ربما أخرى تشبهني، ليست أنا التي ينبض قلبها بحبك، أتفهم؟ أعني بالطبع إذا انتهيت هنا لن يمثل ذلك فارقًا لي، لكني أريد أن أراك، ألمسك، أظل بجانبك أحدثك، أعانقك أيضًا، أريد أن أظل أشعر بك، أتفهم يا حبيبي؟ لماذا تظن أننا نفس الشخص؟ حبيبي، أنا بالطبع أريد أن أراك سعيدًا، لكن من فضلك، لا تخرجني من عالمك بتلك السهولة.

- حبيبتي!! ماذا تقولين؟ بالطبع هي أنتِ، أنتما نفس الشخص، تلك الصور لا تهاجمك من فراغ، وبدون هدف. لأنكما شخصٌ واحدٌ، ستدركين ذلك عندما نلتقي، كما أنني سأعود هنا مرةً أخرى، حتى بعد أن نلتقي، حتى أؤكد لك أنكما بالفعل شخص واحد، لا تقلقي يا حبيبتي، لن أتخلى عنك أبدًا.

- أنا لا حياة لي سوى معك، فلا تحكم بموتي يا نزار. حبيبي، لا أعلم لماذا أشعر بالنعاس وبرغبةٍ شديدةٍ للنوم، هل يمكنني أن أنام بحضنك هنا؟ قرب قلبك، ربما عرفت أخبارًا جديدة عن موعد لقانا.

- بالطبع حبيبتي. نامي هنا بحضني، أحب أن أرى ذلك الملاك وهو نائم.

قبل أن أنهي جملتي، تنام بيسان بحضني. أحتضنها برفق، أداعبُ شَعرها برقةٍ، أستقبل نسماتٍ تائهةً، أفكر فيما قالته بيسان، هل من الممكن أن يكون صحيحًا؟ أن تكون الصورة الأخرى لبيسان بالواقع شخصية أخرى؟ لها صفات أخرى، بيسان هنا شخصية مثالية، لأن خيالي أراد ذلك، خلق الصورة كما رآها بالواقع، لكن الصفات أعطاها كما يحب هو.. كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟ ربما تكون بيسان الأخرى متزوجة ولديها أطفال، ربما تكون واقعة بحب شخص آخر، ملايين الاحتمالات ممكنة، لماذا افترضت أنها ستكون كما رسمها

خيالي فقط؟ لا أعلم حقًّا، لكن الأمر يستحق التجربة على كل حال، لن أخسر شيئًا، السعادة لن تأتي إليَّ راكعة، كما أن الأحلام لا تتحقق إلا بالسعي، ولذلك سأبحثُ عن تلك البيسان بكل شبر، فهي تستحق.

برفقٍ، أزيح رأس بيسان، أضعها برقةٍ على الرمال، أنهض وأتقدم للبحر، أخرج سجائري، أشعل إحداها، أراقب تهادي الأمواج، أشعرُ بالهواء يملأ صدري، قبل أن أستبدله بالدخان، العالم هنا جميل، كفراشةٍ صغيرةٍ، ربما هو جميل، لأنه بدون بشر. الهواء حولي نقي، بدون إثم أو لعنة، أتحرك به بخفة السحرة، ولاعبي السيرك. أصعد للسماء، إن شئت، أو أسير على المياه. يا رب، هنا مشيئتي، منحتني إياها، شكرتك كثيرًا. ولكن، يا رب، لي حاجة، بعالمٍ آخر، لا يد لي فيه، أو مشيئة. فلتكن مشيئتك يا رب، مثل مشيئتي.

- ستكن مشيئته قريبًا، لا تقلق حبيبي.
- بيسان!! هل أقلقك صوتي؟
- لا، أبدًا، نمت جيدًا، أشعرُ بأنني نمت كثيرًا، رغم أن السماء لا تشير لذلك. لدي أخبارٌ جيدة لنا حبيبي، لقد رأيتني في منامي.
- حقًّا!! وماذا حدث؟
- بدأ الحلم من هنا، من نفس المكان، استيقظت وجدتني

مستلقية هنا بنفس ملابسي، ولكنك لست بجانبي، فظننت أنك قد غادرت لعالمك، أصابني الحزن قليلًا، حتى رأيتني جالسة هناك على هذه الصخرة، فأدركت أنني في الحلم، ذهبت إلى صورتي، وأعتقد أنها كانت في انتظاري، الابتسامة على وجهها تقول ذلك، حكيت لها ما حدث، ودار بيننا الحوار التالي:

أنا: هل تعلمين أننا- أنا وأنت- ربما نكون نفس الشخص؟

هي: نعم. أدركِ ذلك، لكن الموضوع بأكمله غريب. أن أتحدث لصورة لي، أنا أفعل ذلك كثيرًا أمام المرآة، لكنه يظل حديثًا من طرفٍ واحدٍ، هنا صورتي تتحدث معي، أجد الأمر مثيرًا.

أنا: أه، أجده كذلك أيضًا، لكن أتعرفي؟ أنا أغار منك قليلًا، ربما تدهشين الآن، كيف يُمكن أن يغار المرءُ من نفسه، لكن لا أعلم، أنا أشعر بذلك كلما أراك. ربما أخشى أن أكون أنا شخصًا آخر غيرك، أرشدك لطريق حبيبي، وأنتهي أنا، أخشى ذلك حقًّا.

هي: أممم، عالم غريب حقًّا. أليس كذلك؟ أن يقف المرء منا أمام صورته ولا يتعرف عليها!! يظن أنها لشخصٍ آخر، شخص سرق ملامحه، ربما لأنه لا يود أن تكون تلك هي صورته، تمامًا مثل الحقيقة، دائمًا ما تكون جلية أمامنا، لكننا لا نُبصرها. لا أدري أين الخطأ، بالعالم أم بالإنسان؟!

أنا: ربما أنتِ حق. أنتِ الأصل، وأنا الصورة الباهتة المشوشة منك. ربما لذلك لم أتعرف عليك بسهولة. الصورة دائمًا- مهما

كانت مطابقة للأصل- تظل صورة. أنا مشوشة، أمور كثيرة حولي لم أستوعبها بعد. وعيك يدل على اكتمالك، ترين ما لا أراه، لذلك أنا مجرد صورة، وفي الأغلب سأظل كذلك.

هي: لا، أنا لا أكتمل إلا بك. نحن صورتان لشخصٍ واحدٍ، إذا تاه أحدنا، سيظل الآخر يبحث عمن ينقصه طوال حياته. ولا يدري أين الخلل، كل منا ناقص ذاتيًّا، نصف دائرة، يُحاول أن يُكملها بشخصٍ آخر، مختلف عنه، يتعلق به ويقول أنت نصفي الآخر. لا هو يكتمل، ولا الآخر. ما لا نفهمه أننا لا نكتمل إلا بذواتنا، فقط لو وجدنا الطريق.

أنا: أتدرين، قبل سنوات، لا أعرف المدة تحديدًا، كنتُ أسيرُ وحدي بصباح ممطرٍ، وكان الجو باردًا، حتى قد وضعت يدي بالمعطف من البرد، وإذا بطفلٍ أسمر صغير، يرتدي سويتر قديمًا باليًا، يقف أمام جروٍ صغيرٍ مرتعشٍ ومبتلٍّ، فوقفتُ أراقبه، فخلع ذلك الطفل السويتر ولف به الجرو، وأحضر له صندوق كرتون، وجلس بجانبه بسعادةٍ، فاقتربت منه وقلتُ له: "يا فتى، كيف تمنح العالم ما لم يمنحك إياه؟"، فأشار إلى قلبه وقال: "الرب منحني هذا، وهذا يتسع للعالم كله". تلك صورة من صور أحلامي، أعتقد ذلك اليوم وجدتُ الطريق الذي تتحدثين عنه، كلما تأتيني تلك الصورة بأحلامي أشعر بالسكينة والفرح. أليس من المفترض أيضًا أن تكون تلك الصورة مرَّت بكِ أيضًا؟ بما أننا نفس الشخص؟

هي: ربما، يحُلم ما، لكن من منا يتذكر كل أحلامه؟
أنا: حسنًا، أعتقد الآن يجب أن نذكر حبيبنا. حبيبنا يُعاني جدًّا، لقد شرحت لك الأمر كله المرة السابقة، لماذا لم تأتِ؟ هل حدث شيء ما؟
هي: نحن في حلم الآن. كل ما يحدث هنا، أو يُقال لا يتم تذكره بصورةٍ صحيحةٍ في يقظتنا، والأمرُ كان مشوشًا، لم تصلني كل التفاصيل بيقظتي.
أنا: ربما من الأفضل أن تقترحي أنت مكانًا يكون مفضلًا لديك، دائمة الذهاب إليه، حتى يمكن تذكره بسهولة هذه المرة.
هي: فكرة جيدة. ربما ذلك أفضل بالفعل، حسنًا، أعتقد أن أحب الأماكن لقلبي، القلعة، القلعة أمام الشاطئ، هناك سأجلسُ طوال اليوم، أخبري حبيبنا ذلك، سننتظره هناك عند الغروب، آخر يوم بالشهر، سنكون هناك، معًا.

***

ريم

مثل اليوم، قبل أعوامٍ طويلةٍ، وُلدت. وبالتالي، فاليوم هو عيد مولدي. هذا اليوم بالأخص، من كل عام، لا يمثل لي شيئًا. أقضيه غالبًا في المنزل، وحيدة، أطالع بعض الكتب. لا أعرف شيئًا مميزًا من المفترض أن أقوم به. في حقيقة الأمر، لا أجد لذلك أهمية. أعتقد- واعتقادي هنا يخصني وحدي، لا شأن

لأحد به- أن الميلاد على هذه الأرض، وهذه الرقعة من الأرض خصيصًا، وهذا الزمن تحديدًا، شيء لا يستحق الاحتفال به. كما أنه مناسبة غير جيدةٍ لتذكيرك بأنك لم تعد صغيرًا، وأن عامًا آخر أضيف لعمرك، وبناء على تلك المعلومة، فالمفترض أننا لا نحتاج لذكاء كبير لندرك أن العمر المتبقي لنا، نقص عامًا هو الآخر، فعلام الاحتفال؟

لكن اليوم، سيكون مختلفًا قليلًا. بعد إصرار عمر على الاحتفال به معي هنا، بمنزلي. لا أعلم لماذا أصرَّ أن يكون الاحتفال بالمنزل، عندما أخبرته، أنني لا أحب الاحتفالات، خصوصًا هذا اليوم، أجاب بأن هذا طلب شخصي منه بحكم صداقتنا، وأنني إذا رفضت هذه الدعوة، سأسبب له ألمًا بالغًا، وبالطبع لم أرد أن أسبب له أي ألم، فهو صديقي بالفعل. لا أتعامل معه كطبيب لي فقط، لذلك قبلت اقتراحه على مضضٍ. كما أنه أشار أنه يجب أن أدعو بعض الأصدقاء لي، حتى لا نكون وحدنا تمامًا، فهو يخاف- كما يقول- على سمعتي. ولكني منذ زمنٍ ورأي الناس عني لا أوليه أي اهتمام. ولكني استجبت لرغبته على كل حال، ودعوتُ بعض الأصدقاء من العمل القديم.

أشعرُ بأن عمر، يسعى لمنحي بهجةً، وأنه اعتقد أن هذه اليوم فرصة جيدة لتغيير مزاجي، وإقامة حفلة صغيرة وسط الأصدقاء.

شعورٌ نبيلٌ من ناحيته، أقدره عليه، ولكن في الأغلب، لن يغير ذلك شيئًا. حفلة زائفة، بابتسامات زائفة، من أصدقاء غير حقيقيين. ذلك بالتأكيد لن يُسبب لي أي بهجة. الواقع لم يعد يُبهجني منذ زمنٍ، الخيال أخذ هذا الدور. أشعر بعمر، يريد إعادتي للواقع مرةً أخرى، وأن يقول لي إن الواقع ما زال قادرًا على الإبهاج، أشعر بهذا، لكنه لا يدري حقيقة الأمر. الواقع بائس، لا مفر من هذا، ولا مجال لتغيير تلك الحقيقة.

في المساء، بدأ كل شيء بسرعةٍ، حضر عمر أولًا، حاملًا تورتة مستطيلة كبيرة، وهدية أخرى ببوكس مربع. ثم أتى حسام، شيماء، نادين، أصدقائي من العمل القديم. كل منهم، يحمل هدية صغيرة. شكرتهم جميعًا، عرفتهم بدكتور عمر، بصفته صديقي، وليس بصفته طبيبي بالطبع، قالت شيماء، إنه وسيم، وإنه سيكون من الحماقة أن أتركه معلقًا في خانة الأصدقاء، وأضافت نادين، كما أنه يبدو معجبًا بك، انظري كيف ينظر إليكِ. هذا غيرصحيح، قلت أنا بتشكك. عمر صديقي، هو يشعر بأن حالتي هذه الأيام غير مستقرة، لذلك هو بجانبي، يُحاول أن يخفف عني، قلت لهم ذلك. بالطبع لم أشر لعلاقتنا كطبيب ومريضة. ولكن ذلك الأمر الذي أشاروا إليه أخافني، إذا كان حقيقيًا سيكون مشكلة؛ أنا متعلقة بعمر، أرتاح في الحديث معه، لكن هذا بالطبع لا يعني أنني أحبه. أنا أحب

فقط فارسي الوسيم، لا أحد غيره يشغل بالي، ولا أود أن أرتبط بأحدٍ سواه.
كان عمر، قد تعرَّف على حسام، ووجد متعة بالحديث معه، وكنتُ أنا والبنات، نجهز المائدة للحفل، الأطباق، العصائر، المناديل. ولكنني أخذت أراقبه في صمت. من حين لآخر كان يختلس النظر إليَّ ويبتسم. نظرات عادية، ربما يرتقب سعادة تطفو وجهي، الأصدقاء يفعلون ذلك أيضًا.

بعد الحفل، انتهى كل شيء سريعًا، كما بدأ. غادرت شيماء أولًا، قالت إن خطيبها ينتظرها بالأسفل، ثم نادين، قالت إن لديها عملًا غدًا باكرًا، ثم حسام، قال ليس لديه شيء محدد، لكن يجب عليه أن يُغادر أيضًا. وبقينا، أنا وعمر، وحدنا.
شكرته كثيرًا على ذلك الحفل، قلت له كاذبة، إن ذلك سبَّب لي سعادة بالغة، وإنني سعيدة أكثر باهتمامه بي، ولقد كنت محقة في الجزء الأخير فقط. ابتسم بصمتٍ، وناولني هديته، وتمنى لو أنها تعجبني. فتحت البوكس مفكرة، ماهية هدية طبيب نفسي، ماذا سيكون شكلها. فوجدت بباطن البوكس ترقد مجموعة من الكتب، فرحت بها كثيرًا. إنها مجموعة جيدة من الروايات، قال عمر. شكرته كثيرًا، وودت لو أحضنه، لكن خفت أن يفسر ذلك خطأ، لو كان يحمل لي مشاعر بالفعل. ثم طلب مني، أن يشاهد الشقة، غرفة نومي بالأخص، وأن أحكي له، ماذا أفعل

غالبًا بكل غرفة بيومي.

من غرفة نومي، بدأنا جولتنا. أخذ عمر يتفحص كل شيء في الغرفة، ومن حسن الحظ أنها كانت مرتبة جيدًا. فحص درجات الإضاءة بالغرفة، سألني إذا كنتُ أنام على درجةٍ معينةٍ من الإضاءة أم والغرفة مظلمة. لا أعرف أن أنام تحت الضوء، أحب الظلام، ذلك يريحني. أجبتُ أنا. فحص السرير، ومدى ليونة مراتبه، وسألني إذا كان ذلك السرير مريحًا أو يسبب لي أي ألم، أجبت لا. بجانب السرير كوميدينو صغير، فوقه أباجورة، وبجانبها ثلاثة كتب. فحص الكتب الثلاث، وسألني هل انتهيت منها، أجبته أنه على الأغلب نعم، فقال لي إن أسماء تلك الكتب تعجبه، ويشعر بأنه يود قراءتها، وأنه سيكون سعيدًا جدًا لو لم أمانع أن أعيرها إياه. قلت له، طبعًا، إن ذلك يسعدني أنا شخصيًا، أن نتشارك نفس الاهتمامات. خرجنا من الغرفة، لغرفة المعيشة، فحص قائمة التلفزيون المفضلة، دوَّن جميع أسماء الأفلام من على اللاب، أرفف المكتبة، وسألني كيف ترتبين مكتبتك؟ أجبته بأن الرف الأعلى للكتب التي أقرؤها حاليًا، وأن الأرفف الأخرى، تتراوح ما بين الشعر، الرواية، السير الذاتية، التاريخ، وهكذا. سحب الكتب بالرف الأعلى كلها، وقال إنه سيضيف تلك الكتب أيضًا لما أخذه. سألته، ما الذي تحاول أن تصل إليه يا عمر، هل سيخرج فارسي الوسيم من شاشة اللاب؟ ومن بين أرفف الكتب؟ أجاب ضاحكًا:

ربما. ثم أدار وجهه لي وقال إنه يحاول أن يجد كل طرف خيط، يصل به للحقيقة، وأضاف، إن كل تلك الأشياء التي فحصها، تشكل مؤثراتٍ خارجيةً لي، وبالتالي تؤثر على أحلامي بشكلٍ ما، بالطبع ليس بصورةٍ كاملةٍ، لكن بالتأكيد تؤثر، بشكلٍ أو بآخر. وأن مهمته الآن، أن يفصل تلك المؤثرات عن أحلامي، حتى يتضح له الحلم جليًّا، ويصل لتفسيره الصحيح. قلت له، إن كل ما يفعله، مضيعة للوقت، وإن من الأفضل أن يركز بحثه عن الحالات الشبيهة لي، التي مرَّت على العلم من قبل، ربما هكذا سنجد طريقًا للحقيقة، وفي الحقيقة، الحقيقة بذاتها لا تهمني بشيء، وكل ما يهمني، أن أجد طريقًا لفارسي، قلتُ له جد لي هذا الطريق، وستكون قد عالجتني بالفعل، وعدني أنه سيبذل كل ما في وسعه، وإن أمري يهمه، وأن أكون سعيدة، هو ما يهمه أكثر. قلتُ له صادقة، إنني سعيدة بالفعل، لسماع ذلك.

***

صفحاتٌ مُقتطعة من مذكرات د. عمر

ها أنا ذا أعودُ لأكتب، ربما السبب الرئيسي لذلك هو أنني أود أن أوثق تلك اللحظات. قطعة البازل الأخيرة أصبحت قريبة، ستكتمل الصورة أمامي.

تلك الحفلة- التي أصررت على إقامتها لريم بمنزلها- كانت مهمة

جدًّا بالنسبة لي. دراسة كل ما يُحيط بريم، أي مؤثر خارجي قد يصل إليها بشكلٍ ما، تلك الفكرة لمعت بذهني عندما حكت لي عن كابوسها الأخير، وتلك الجُمل التي ترددت بروايةٍ كانت تقرؤها. كل تلك مؤثرات يختزنها عقلها الباطن، ويُخرجها في صورة أحلام. لكن يظل الأمر غريبًا أيضًا، موضوع ريم أكبر قليلًا من تلك البساطة التي أشرح بها، لا يمكن أن يكون مجرد مؤثرات خارجية. هناك شيء لم يفهمه عقلي بعد، كيف يمكن أن يتفقا على ميعاد بالحلم، ثم يتلاقيان في الواقع؟ هذا أمرٌ غير ممكن برأيي، إلا أنه ليس بمستحيل. العقل لغزٌ كبيرٌ، لا يمكن أن تتوقع أبدًا ما يمكن أن يصل إليه.

لكن على كل حال، يجب عليَّ دراسة كل تلك المؤثرات التي جمعتها، يجب دراستها جيدًا، حتى أستطيع أن أفصل بين ما هو حُلم وما هو حقيقة.

أما عن شعوري تجاه ريم، نعم، أنا ما زلتُ أحبها، ويزدادُ حبي مع كل لقاء لنا. لا أعرف كيفية التخلص من هذا. هي تحب ذلك الفارس من أحلامها، ويبدو أنني لا أرقى لذلك الفارس، من وجهة نظرها. هي تعتبرني صديقًا فقط، أدرك ذلك. أرى معنى أن تكون محبًّا حينما تتحدث عن فارسها، أفرح لأنها سعيدة، حتى ولو بالخيال، أفرح لسعادتها. تلك المسكينة عانت كثيرًا،

السعادة كانت تخشى الاقتراب منها. تلك الأيام هي سعيدة بالفعل، وأخشى أن أدمر أنا كل ذلك بيدي، إذا ما تأكدت ظنوني وشكوكي. الأمر ليس يسيرًا، أن أذهب إليها وأخبرها ما أظنه وأراه، بخصوص أحلامها، وهل ستصدقني حينها؟ لا أعرف.

***

مذكرات الكاتب المجنون

١٠

آه شخصياتي الحلوة، الأمر يبدو كأنني وضعتهم جميعًا في خلاطة ومزجتهم ببعض، «بيسان» وصورتها و«ريم»، فلا تدري من هو من، ومن يتحدث بلسان من، ومن في رأس الآخر.. أرهقتكم معي، لكن النهاية يا قُرّائي الحلوين في الفصل القادم، العقدة ستُحل، وكل شخص سيذهب إلى بيته بعدها. وأنا سأظل مختبئًا فقط في هذا العالم، أبحث عن شخصيات أخرى ألعب بعقلها، هاها.

جاءتني فكرة عظيمة: أن أتنكّر في إحدى شخصيات «سالم» التي يكتبها الآن، وأذهب لأفسد روايته، أحب أن أرى «سالم» يقفز كالمجنون، سمعت أنه يكتب رواية عن رجل وحيد يجهل سبب خوفه، ولفترة طويلة كان الرجل يجلس في غرفته وحيدًا جاهلًا سبب خوفه، أو تلك الرعشة الصباحية، التي تسري فيه وتصعقه، بمجرد أن تلمس عروق قدمه المتصلبة أرضية الحجرة، ما مصدرها؟! رأسه الذي يغوص بطريقة آلية في

قفصه الصدري كالسلحفاة كلما مرّ أمامه تيار هواء غريب مغاير لهواء الحجرة العفن. أفكّر في التنكُّر في هيئة ذلك الرجل، وأفتح باب الغرفة وأهرب، وأترك لـ«سالم» ورقة في الغرفة أقول فيها: أنا ذاهب إلى «الديسكو» يا «سالم» يا مجنون، خوف ماذا؟ ووحيد ماذا؟ العالم لا ينقصه بؤسك يا تافه، اجلس أنت مع نفسك. هاها.

نرجع لأرضنا، لا تقولوا يا قراء إنني لم أحاول أن أحلل لكم العقدة مبكرًا، لقد حللتها على لسان «ريم» أكثر من مرة، لكن ربما لم تنتبهوا. آه، الكل سيذهب الآن إلى بيته، وستتركونني وحيدًا، أحببتكم يا شخصياتي، أحببتكِ يا «ريم»، وما زلت أراكِ جميلة ومثيرة، لن أتركِك هنا، سآخذك معي في الرواية القادمة يا حلوة..

وأنت يا «نزار»، لم تخيّب ظني، فعلت كل ما هو مطلوب منك وأكثر، سأريح قلبك، هانت..

حسنًا، هيا بنا، لنودع أبطالنا..

نزار
النهاية

"اليوم، آخر يوم بالشهر، هذا يعني الكثير بالنسبة لي"

اليوم، آخر يوم تحديدًا في مسيرة أحلامي الجميلة، لستُ متأكدًا تمامًا من رؤيتها اليوم. لكنني متأكدٌ من القرار الذي اتخذته صباحًا، وهو سواء رأيتها، أم لا. فهو أنني لن أتناول تلك المادة مرةً أخرى. وللوقوف على أسباب القرار المصيري هذا، دعوني أسرد لكم بعض تطورات حياتي الفترة السابقة، حياتي الواقعية أقصد.

منذ بدء عالمي الموازِي، انتهت حياتي هنا، بالواقع. أصبحت أنام كثيرًا، عقلي تعلق بالنوم، ورفض اليقظة، أصبحتُ أقضي يقظتي محاولا النوم. أهملت عملي، ربما أنا سعيدُ الحظ لأنني لم أطرد حتى الآن. علاقتي ساءت مع مديري، وزملائي. جيراني يظنون بي الجنون الآن، خصوصًا بعد موقف أستاذ عاطف، ذلك الثرثار لن يصمت، أدرك ذلك. كما اتضح لي أيضًا، أن لديهم صورة سيئة بالفعل عني. أصبحت أتجنب البشر، وأفضل العزلة، زاد ذلك من الشعور بإحساس الوحدة بحياتي.
كلما ردني الواقع إليه، أزداد حزني وبؤسي، لأن ببساطة سعادتي انحصرت فقط في الخيال. فور يقظتي اليوم، أدركت أنني أخسر

حياتي تدريجيًّا. أدرك أنها ليست الحياة المثالية، أو المبهجة، لكنها تظل حياتي الواقعية، التي لا مفر منها، ولا مخرج. مهما طال ذلك العالم الموازي، سينتهي يومًا ما. وسأعود للواقع مجبرًا، لكن كيف سأكون حينها؟ أشعر أنني أختار بين سعادةٍ مؤقتةٍ، أو بؤسٍ دائمٍ.

أتمنى أن تأتي بيسان اليوم حقًّا، لأنها إن لم تفعل، فأنا ليس لدي شيء آخر أفعله تجاه هذا الأمر. هل أكون بذلك القرار أستسلم بسهولة؟ أفرط في حب ربما سيجلب السعادة الأبدية معه؟ لا أعرف، هل هذا قرارٌ صائبٌ؟ لا أدري حقًّا.

حسنًا، دعونا نرتب الأمور جيدًا، حتى نكون قرارًا صائبًا.

إذا جاءت بيسان اليوم، فالموضوع منتهٍ. وبالفعل لن أتناول المادة مرة أخرى، لأنني سأكون نجحت في الحقيقة لما أسعى إليه. إذن فالموضوع منتهٍ.

إذا لم تأت اليوم- وهذا أمرٌ واردٌ جدًّا، وغير مستبعدٍ- فالاحتمالاتُ كثيرةٌ جدًّا. ربما لا يحدث تواصلٌ فعلي معها، أي رسائلي لا تصل إليها. وإن بيسان التي أحبها مجرد خيالٍ رسمه عقلي، صورة من بيسان الحقيقية. وبالتالي سيكون من البؤس أن أقع في حب صورة، وأن أظل هكذا معلقًا بالخيال. وربما أيضًا الرسائل تصل، لكن تصل مشوشة، كما قالت لي بيسان، لكن هذا أيضًا لا يُعتد به، لأن أي شيء قالته بيسان

أو ستقوله، فهو ناتج عني أنا، لأنه حلمي، وبالتالي شوقي لرؤيتها سيترجم بالحلم لمثل هذا، فبالتالي لا يُمكنني أن أتعلق أيضًا بذلك الاحتمال. ربما أيضًا تصلها الرسائل بشكلٍ جيدٍ، وبصورةٍ واضحةٍ، دون تشوش. ولكنها لا تستوعب ما يحدث لها، أو لا تصدق. ربما تظن أنها مريضة نفسيًّا، شخص يقتحم أحلامها، ويريد أن يراها، أمرٌ غريبٌ بالفعل، لكن على الأقل، كان الفضولُ سيجر قدمها للمكان، أليس كذلك؟

هناك أيضًا احتمالٌ لم يخطر ببالي، ربما تأتي بيسان بالفعل اليوم، لكنها ربما لن تأتي وحدها، ربما تأتي هي وطفلتها، لتخبرني أنها متزوجة بالفعل ولديها حياة، وإنه من الأفضل أن أكف عن ملاحقتها بالأحلام، هذا احتمالٌ واردٌ. ولكنه سيقتلني إذا حدث هذا، الأفضل لي ألا تأتي من الأصل على هذا الاحتمال.
في النهاية، أعتقد أن الأفضل، لي ولها، أن أتوقف نهائيًّا عن تناول تلك المادة. لو مقدر لنا أن نلتقي، سنلتقي على كل حال. أدرك الآن بالفعل ألا أحد يمكنه معاندة القدر، وفي الحقيقة ليس ذلك ما كنتُ أنوي، ولكني كنتُ أتمنى، أن يخطو القدر خطواته هذه المرة، وفقًا لأمنياتنا. كنتُ أرجوه لا أعانده. أن يتنازل، ولو لمرة، عن مخططه، وأن يمنحني قلبًا أحبه، هذا ليس بالشيء الكثير، أليس كذلك؟ قلبًا أحبه، أحيا معه بسعادةٍ وسط سخافة هذا العالم، ألا يكفي كل تلك السخافة، القذارة،

الملل، أليس كل ذلك كافيًا لنكون بائسين؟ هل من المُحتم أيضًا أن نحيا كل ذلك البؤس وحدنا؟

قبل الغروب بساعة..

أقفُ على رمال شاطئ قريبٍ من القلعة. السماء رمادية، تلقي بغيمةٍ كبيرةٍ على المياه. الجو بارد، والهواء يلهو بالرمال، ويصنع منها دواماتٍ رمليةً تطوفُ بالشاطئ. أرتدي حذاء أسود، بنطلون جينز أزرق، قميصًا أبيض، فوقه جاكت جلدي أسود. أقترب من المياه قليلًا، أخرج من جيب الجاكت الجلدي أكياسًا صغيرة، ما تبقى لديَّ من تلك المادة. أفتح أولها، أفرغ محتوياته بالمياه، فتحمل الريح ذرات المادة، فتنثر جزءًا على صفحات المياه البعيدة، وتحمل جزءًا تطوف به الشاطئ. وكذلك أفعل مع الباقية. أنثر أحلامي على صفحات البحر الهائج، فيبتلعها في ثوانٍ. أرى صورة بيسان تخرج من وسط المياه، تنظر لي طويلًا، تُعاتبني بنظراتها، ترسل بعينها، ربما آخر رسالة منها، وكأنها تقول لقد حنثت بوعدك لي.

أديرُ ظهري للمياه، أرجع مبتعدًا عن المياه، أجلسُ على الرمال، وأنظر مرة أخرى للشاطئ، اختفت صورة بيسان. أخرج سجائري، أشعل إحداها، أنظر لساعتي، أنفث الدخان ببطء

وتلذذ. وكأنني أدخن آخر سيجارة في العالم. أفكر فيما سيحدث بعد قليلٍ، قلبي يضطرب قليلًا، أدفن توتري في سيجارتي مرة أخرى. لا أدري كيف هو العالم بدون سجائر؟ والمشاكل كيف ستحل؟

أنهي سيجارتي، أنظر لساعتي مرةً أخرى، يزدادُ توتري مع اقتراب الميعاد، أتحرك نحو القلعة، أسير ببطء، ومظهري هادئ خارجيًّا، ولكني مهتاجٌ كليًّا، قلبي يهوي كعميل بنك أخبرته أن رصيده أصبح صفرًا بعد اكتظاظه بالملايين. المثانة تمتلئ للمرة الثانية بوقتٍ قصيرٍ، أصابعي ترتعشُ، مع كل خطوةٍ تجاه القلعة.

أصلُ للقلعة عند الغروب تمامًا. القلعة ليست خاليةً تمامًا، لكنها تكاد. بعض المحبين يحتمون ببعضهم من البرد، تراصوا على سور الشاطئ. بائعو الشاي، يفترشون السور أيضًا. بعض الأطفال يلهون بالكرة بعيدًا، وهناك، أسفل القلعة، على المقعد الحجري، قرب الشاطئ، تجلس فتاة.

فتاة، تجلس وحيدة، تنظر للشاطئ، لها شعرٌ أسود ناعم، يُداعبه الهواء برقة. قلبي الآن- فعليًّا، وبالمعنى الحرفي للكلمة- ينصهر تمامًا، كقطعةٍ حديديةٍ ألقوا بها بأتون ضخم. فعلى مقربةٍ مني، وعلى بُعد عدة خطواتٍ قليلةٍ، تجلس فتاة لها هيئة بيسان، تعطيني ظهرها، وتنظر للشاطئ بشرودٍ. هل سأكون مبالغًا قليلًا،

إذا قلتُ إن قدمي لا تحملني؟ وإنني بالفعل أكاد أسقط أرضًا، وإن هناك دمعًا ينسابُ من مقلتي عيناي دون إرادةٍ حقيقيةٍ مني، وإنني لا أستطيع أن أتقدم خطوةً أخرى واحدة، أشعر بأنني تسمَّرت بمكاني، فقدت النطق، صوتي لا يخرج، أحاول المناداة باسمها، يخرج مبحوحًا، متحشرجًا، ضعيفًا. الأمرُ أقوى مني، ليس كل يوم يصل المرء لحلمه. وها أنا ذا وصلت، لكني لم أصل بالفعل. أجلسُ على أقرب مقعدٍ بجانبي، ألتقط أنفاسي بصعوبةٍ، أحاول أن أهدأ، أمسك برأسي وأنظر لأسفل.. أتنفس بانتظامٍ الآن، أمسح ما سال على خدي من دموع، أقفُ وأتقدم بهدوءٍ للأمام، أقفُ خلفها تمامًا.

- كنتُ متأكدًا أنني سأراكِ اليوم هنا.

تتلفت بسرعةٍ إليَّ، تبتسم حين تراني. هي بيسان، كما رأيتها بالحلم، نفس الملامح، الشعر، العيون، هي كما رأيتها بحلمي، لا أصدق نفسي حقًّا.

تلمع عيناها من أثر الدمع، تزدادُ ابتسامتها وتقول:

- إذن أنت لست وهمًا؟

- لا، لستُ وهمًا.

أجيب وأنا سعيدٌ، وقلبي يرقص حقًّا، والدمع يزدادُ بأعين بيسان، وهي تقول:

- إذن لم أكن مجنونة أو مريضة؟ هذا ليس حلمًا، أو هلوسة أليس كذلك؟

- لا يا حبيبتي، ليس حلمًا، وبالتأكيد ليس خيالًا أو هلوسة، هذا ممكنٌ أن يكون الشيء الوحيد الحقيقي بواقعنا. الشيء الوحيد، الذي حاربنا من أجله، ونجحنا به. القدر اليوم منحنا هدية، أعتقد أنها لم يحصل عليها أحدٌ قبلنا يا حبيبتي.

اندفعت بيسان إليَّ، ارتمت في حضني باكيةً، ضممتُ يدي حولها، عانقتها بقوةٍ، اختلطت دموعنا بضحكنا، خرج صوتها مبحوحًا متقطعًا من بين أحضاني يقول:

- لا تعرف كم عانيت من أجل هذه اللحظة يا حبيبي. الحياة لم ترحمني، لقد عانيت كثيرًا.

- أعلم يا حبيبتي، أنا أيضًا كنتُ أعاني، كنتُ أعلم أنكِ بجانبي بصورةٍ ما، لكني لا أعرف الطريق إليكِ، منذ القطار، وصورتك لا تُغادرني، لقد أضعتك مرةً، وأقسمت أن هذا لن يحدث ثانية. آآآآه يا حبيبتي، لو تعلمين كم انتظرتُ هذه اللحظة، بحثتُ عنك كثيرًا، ولم أجد سبيلًا.

- أعتقد أن تلك النهاية، أليس كذلك؟ لن نعاني مرةً أخرى، أم أن القدر يحملُ لنا شيئًا آخر؟

- أعتقدُ أن تلك نهاية آلامنا فقط، وليس النهاية ككل. إنها فقط البداية يا عمري، بداية حياة جديدة، نبنيها معًا من الفرحة. أنا لن أتخلى عنك مهما يحدث، سأكون بجانبك أرعاك، وأحبك.

- أنا أيضًا أحبك، كنتُ أذهب للنوم سريعًا كل ليلة حتى أراك، وأصحو والسعادة تغمرني، صباحاتي كلها كانت بطعمك أنت، فكانت كلها جميلة.

أفك ذراعي من حول عنقها، أتحسس وجنتيْها الورديتيْن، أرتب خصلات شَعرها، أمنحها قُبلةً طويلةً، نغرق بها.

- أحبك حقًّا.

***

النهاية الأخيرة
ريم

"اليوم، آخر يوم بالشهر. هذا يعني الكثير بالنسبة لي"

القلعة، أمام الشاطئ، عند الغروب. ذلك المكان قريبٌ من قلبي بالفعل، كما أنني أحب غروب قرص الشمس، لا أنكر ذلك، لكن هل أنا حقًّا مَن اخترت ذلك؟ أشعرُ بأن أحدهم غرس تلك الكلمات بعقلي. أشعر وكأن أحدًا ما يُمسك عقلي بين يديْه، ويلهو به كيفما يحب. مؤخرًا، صار كل شيء يعبر عقلي دون إرادةٍ حقيقيةٍ مني. صور تأتيني، أشخاصٌ تُحدثني، شخصٌ يُحبني، ويريد لقائي. كل شيء، تحول عقلي لبوابةٍ دون حراسةٍ،

الكل يعبرها ويستبيحها. مللت هذا العجز. ولكن لو أنني بالفعل من حددت ذلك الميعاد، فهذا يعني- على الأقل- هناك احتمالٌ، ولو ضئيلًا، بأنني ما زلتُ حرَّة.

أشعرُ أنه يجب ألا أخبر ميعاد اليوم لعمر، لربما جاء ذلك الفارس بالفعل، بالطبع لن يكون سعيدًا عندما يراني مصطحبة طبيبي النفسي للقائه. سيغضب عمر ربما، وربما أيضًا لن يُصدقني إذا أخبرته أنني التقيته بالفعل، لا يهمني، لأنه إذا حدث وجاء، فهذا يعني أنني لستُ مريضةً بالفعل، وأن تلك الأحلام انعكاسٌ لحياةٍ أخرى بعالمٍ آخر، نلتقي به أنا وذلك الفارس.

أقفُ أمام المرآة كثيرًا اليوم، هل من أراها الآن أنا بالفعل، أم تلك الصورة بأحلامي؟ أقترب أكثر، فتقترب تلك الصورة معي، إنها مثلي بالفعل، لا أجد فرقًا. هل جننت؟ لم يعد ذلك بالأمر المهم الآن.
أمام خزانة ملابسي، أقف حائرة. لا أدري ما أرتدي، أعتقد أن الأسود ملائم جدًّا لهذا الطقس، كما أنه يُخفي أحزان القلب عن الأعين. أرتدي ما يجعلني أنيقة، أنظر مرةً أخرى للمرآة، أرى أنني لستُ جميلةً اليوم، الأسود ليس فقط بملابسي، أخذ مساحة جيدة تحت عيني، ووجهي شاحب كالأشباح، سيكون

من سوء حظه إذا جاء اليوم بالفعل.
أركنُ سيارتي بالقرب من القلعة، أترجل سيرًا نحو القلعة، أضع يدي بجيبي معطفي، أشعرُ بقلبي مقفرًا، كمدينة أشباح. أصابعي ترتجف، وليس من البرد بالتأكيد. والسماء تحملُ غيمةً كبيرةً، ألقت بظلالها على قلبي، فصار منقبضًا. أشعرُ بالرغبة في العودة، أخشى اللقاء، ربما لن أعجبه بشكلي هذا، يدفعني الهواء دفعًا، وكأنه يقول: ألا مفر. أصل للقلعة قبل ميعاد الغروب بقليلٍ، القرصُ مختفٍ بالأصل من السماء، لكن الميعاد لم يأتِ بعد. أتلفت حولي، ليس هناك الكثير من الناس، أسفل القلعة، قرب الشاطئ، وعلى ذلك المقعد الحجري، أجلسُ أنظر للشاطئ. تلك الأمواج، تزاحمني أفكاري، تأتيني بصور شتى، مع كل موجةٍ تصطدم بالصخور، تبرقُ برأسي صورٌ عديدةٌ.
الحُلم هو القدر.. أن أنامَ للأبد.. أغرسُ مطواتي بقوة.. عالم دون خوف.. الرمالُ تحب الدم.. هنا دمٌ طازجٌ.. ظلامٌ تام.. روحٌ تائهةٌ بالعدم.. عالمٌ آخر.. المرآة فارغة.. موكبٌ جنائزي.. عقارب سوداء.. رغوة بيضاء تسبح.. قهوة بيدٍ ملتويةٍ.. الإنسانُ خطيئة.

- كنتُ متأكدًا، أنني سأراكِ اليوم هنا.
تعبر الكلماتُ رأسي، تتلاشى كل الصور فجأةً، يقفزُ قلبي بسعادةٍ، ألتفتُ في سرعةٍ.

- عمر؟

ما.. ماذا.. ماذا تفعل هنا؟

- اهدئي يا ريم! دعيني أجلسُ بجانبك وأشرح لك.

- أجلس، لكن قل لي كيف جئت هنا؟ أنا لا أفهم شيئًا!

- حسنًا يا ريم، أنت تعلمين، أنني لستُ فقط طبيبك النفسي، وإنما صديق لك أيضًا. لذلك أمرُك يهمني جدًّا. من البداية، حالتك يا ريم كانت بسيطة، ولكن تلك التفاصيل الغريبة التي أخبرتني بها هي من أربكتني. بحثتُ كثيرًا في الحالات المماثلة، لكن دائمًا كان هناك خيطٌ مفقودٌ. ذلك الخيط عثرتُ عليه آخر مرة عندما حكيتِ لي عن كابوسك، وعن جُمل قرأتيها بروايةٍ اقتحمت أحلامك. لذلك عندما أصررتُ على الحفلة بمنزلك، كنتُ أريد دراسة كل ما حولك. أما عن الكتب التي كنت تقرأينها، أخذتُ أدرسها الأيام السابقة حتى وقعت تحت يدي تلك الرواية، التي تحمل اسم (أرض الكراميل)، كانت موجودةً فوق الكوميدينو بجانب سريرك. مع بداية صفحاتها، تفككت رموزُ ذلك اللغز. دعيني يا ريم أسرد لك بعض المقاطع من تلك الرواية.

"لففتُ يدي حولها، نسيتُ كل شيء حولي. أردتُ أن أضمها أكثر وأكثر إليَّ، قربتُ رأسها لصدري، "أسمع دقات قلبك، يدق بسرعة" قالت لي. "لأنك بقربه يا بيسان، لم يحتمل، لو

لدقات القلب لغة، لسمعتيه يهتفُ باسمك مع كل نبضة" قلتُ أنا. "أسمعه وأشعر به، وأنا أيضًا قلبي يهتفُ باسمك الآن" قالت بيسان. بيسان، تعالِي معي، أود أن أقول لكِ الكثير، هناك كافيه هادئ على الجانب الآخر من الطريق، دعينا نذهب إليه، قلت أنا".

- هل يذكرك ذلك بشيء؟ دعيني أريكِ بعض المقاطع الأخرى، انظري مثلًا:

"تمشينا حتى السينما، كان هناك فيلمٌ فرنسي يُعرض اسمه Love. شاهدناه معًا.

صراعٌ داخلي اشتعل بصدري في نهاية اليوم، أنا أريد أن أرى بيسان في الواقع أيضًا، ذلك العالم لا يكفيني، يجب أن أقضي معها كل ثانية بالعمر".

هل يذكرك ذلك الفيلم بشيء؟ حسنًا لنصل للنهاية بذلك المقطع:

"هي: نحن في حُلم الآن. كل ما يحدث هنا، أو يُقال، لا يتم تذكره بصورةٍ صحيحةٍ بيقظتنا، والأمرُ كان مشوشًا بالفعل، لم يصلني كل التفاصيل بيقظتي.

أنا: ربما من الأفضل أن تقترحي أنت مكانًا يكون مفضلًا لديك، دائمة الذهاب إليه، حتى يمكن تذكره بسهولةٍ هذه المرة.

هي: فكرة جيدة. ربما ذلك أفضل بالفعل، حسنًا، أعتقد أن أحب الأماكن لقلبي، القلعة، القلعة أمام الشاطئ، هناك سأجلسُ طوال اليوم، أخبري حبيبنا ذلك، سننتظره هناك عند الغروب، آخر يوم بالشهر، سنكون هناك، معًا".

اليوم آخر يوم بالشهر، نحن الآن عند القلعة، ساعة الغروب. أنا آسف حقًّا يا ريم، لا أعرفُ ما أقول لكِ. ما كان يحدث لكِ هو أنكِ كنت تقرأين تلك الرواية، وتندمجين معها، تتخيلين نفسك البطلة، وتهاجمك تلك الأحلام. الرواية أحداثها في ٢٠١٥، ونحن الآن بـ ٢٠١٦، لكن تقريبًا في نفس الوقت من العام، لذلك الظروف ساعدتك في رسم أحلامك كما الرواية، ذلك يا ريم نوعٌ من أنواع الفصام، العلاجُ سهلٌ، لكن سيأخذ وقتًا طويلًا، وإرادة قوية منك. أتعرفين بعد ما أدركت تلك الحقيقة، هناك أمرٌ كان يُحيرني، وهو الفيلمُ الفرنسي، الفيلمُ الفرنسي بالفعل كان معروضًا بالسينمات في ٢٠١٥، وبالتالي ما ذهبتِ تشاهدينه أنتِ وأحمد خطيبك، غير من الممكن أن يكون هو. فرجعت للتذاكر التي منحتني إياها، لكن لم أجد اسم الفيلم عليه، فقط اسم السينما، فأجريت اتصالًا بإدارة السينما وسألتهم على الأفلام التي كانت معروضةً ذلك اليوم، لم يكن ذلك الفيلم من بينها. كما أنني توصلت لرقم أحمد خطيبك، هاتفته وسألته، قال لي إن الفيلم الذي شاهدتماه معًا

كان فيلمًا آخر. وبالتالي تأكدت من ظنوني، وبالمناسبة، سألني عنك كثيرًا، وأبدى أسفه لما انتهت إليه الأمورُ بينكما، لكنني بالطبع لم أخبره أي شيء عنك. أنا حزينٌ حقًّا، لأنني أخبرك كل تلك الأمور بتلك الصورة يا ريم. أرى الصدمة تعتلي وجهك، وعيناك زائغتان. لماذا صامتة هكذا؟ هل تستوعبين ما أقول؟

- ...

- لمَ كل هذه الدموع يا ريم؟ لا تقلقي، سأكون بجانبك حتى تتخلصي من تلك الحالة، أنا أعلم أنك قوية، ستتخطين هذا قريبًا.

- إذن... إذن أنا مريضة بالفعل؟ كل تلك الفترة، كل تلك الأحلام، كل ذلك وهم، وخيالات؟ لا يوجد فارس يُحبني؟ كل تلك أوهام؟

- هناك من يحبك بالطبع، ولكن بالتأكيد ليس ذلك الفارس.. يا ريم، لا تفكري بالموضوع بتلك الطريقة، من الجيد أننا اكتشفنا الموضوع قبل أن يُحدث مضاعفات أكثر من ذلك. لنفترض أنني لم آت اليوم، عقلك يسير وفقًا للرواية، وبالتالي كان يجب أن يحضر أحد، لذلك لربما وعلى الأرجح كان سيصور لك فارسًا وهميًّا، تتحدثين إليه، وتظنين أنه حقيقي، هنا كان سيصعب معالجتك، ستطور الحالة أكثر، لذا من الجيد أنني اكتشفتُ ذلك مبكرًا. اسمعي، أنت مُتعبة الآن، الأفضل أن أوصلك للمنزل ترتاحين قليلًا. أعصابك بحاجةٍ للهدوء الآن.

هل.. هل يمكنك.. هل يمكنك أن تعانقني قليلًا؟ أنا بحاجةٍ لهذا أكثر.

يُعانقني عمر طويلًا، أترك دموعي تنهمرُ، دون توقف، يُمرر أصابعه بشعري.

- أحبك حقًّا.

***

مذكرات الكاتب المجنون

١١

سمعت أن سالم المجنون بدأ في كتابة رواية جديدة، واختار لها أسم غريب طويل، اسماها " مذكرات كاتب مجنون قفز من رواية كاتب أخر" هاها

شكر خاص

أمير حسين

مصطفى الشيمي

أحمد عطية

أرض الكراميل

ذهبتُ إلى هناك لأنجو بروحي. كنت أعلم أن في أول هذا الطريق شقائي، وفي آخره هلاكي، ولكن لم يكن لديَّ اختيار. ومع ذلك، أبيتُ أن أخوضَه منفردًا؛ فقد مارستُ من الوحدة ما يكفي لأن أستجدي أي شيء يؤنسني. غزلتُ رفيقًا من خيوط رمادية، وبسطت الأرض تحتنا، أرضًا مديدة وناعمة، سماؤها من الحلم وتِبرها من «الكراميل».

محمد سرور

كاتب وروائي مصري، مواليد الأسكندرية ١٩٨٧، صدرت له رواية بعنوان (لعبة السادة) ٢٠١٥. وفازت مجموعته القـ[illegible] (قط يعري العالم) بجائزة أخبار الادب دورة [illegible] ارض الكراميل العمل الروائي الثاني له.

50

تصميم الغلاف : احمد الصباغ

تويا

دار تويا للنشر والتوزيع